المسلمون والتقدم

لماذا التخلف في بلاد المسلمين ؟
وكيف يمكن تجاوزه ؟!

د. محمد محمد الشحومي



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد
اسـم الكتاب : المسلمون والتقدم
المـؤلف : د. محمد محمد الشحومي
رقـم الإيداع :

الطبعة الأولى ٢٠١٨

مكتبة جزيرة الورد
القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل
ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤
Tokoboko_5@yahoo.com

الإهداء

إلى البعض من أبناء ملّتنا، الذين يقرؤون القرآن ليل نهار ويمرون بجانب الآية القرآنية الثالثة من سورة الأعراف ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ ، ولا يتدبرون معانيها ولا يعلمون بما جاءت به وهي تأمرهم بأن يتبعوا ما أنزل ربهم إليهم ولا يتبعوا من دونه أولياء وتذكرهم تلك الآية العظيمة بأن القليل منهم هو الذي يتذكر ما جاءت به الآية. وتقول لهم آية أخرى جاءت في سورة البقرة عن الأسلاف بأن ﴿ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٤] وتكررت في الآية ١٤١. ومع علمهم وحفظهم لهذه الآية يقول لك مدعي السلفية: نحن نفهم كتاب الله وسنة نبيه على فهم أسلافنا، وكأن أسلافهم قد أحاطوا بعلم الله الذي لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وهم ومن بعدهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً، وحجّروا القرآن بفهم بشر عاشوا في زمان ومكان محددين مختلفين تماما عن عصرنا، وهم يقرؤون القرآن الذي لا تنقضي عجائبه ولا يعلم تأويله إلا الذي أنزله الذي يعلم ما في أنفسنا ولا نعلم ما في نفسه، ولا ما هو مقصده الإلهي سبحانه وتعالى، خاصة في الآيات المتشابهات التي يفسرها تفسيرا هوائيا أصحاب الزيغ والانحراف، الذين عطلوا عقولهم، وآثروا أن يفكر الأسلاف نيابة عنهم، ففقدوا الثقة في أنفسهم، واحتقروا عقولهم. التي لولاها لكانوا كمخلوقات لم يكرمها الله مثلهم، خلقت لهم، ووجدت لتعيش تأكل وتشرب وتتكاثر. ولولا هذا العقل لما اختاروا أن يكونوا سلفيين مسلمين، ولولا هذا العقل لما آمنوا بأن القرآن حق والسنة حق والله حق والجنة حق، وكل شيء أحقه الله فهو حق؟!!!! ولولا العقل لما تمكنوا من نفي الألوهية عن غير الله، بـ (لا) نفيا ، وأثبتوها له بـ(إلا) استثناء.

نحن هنا لا نريد إلا الإصلاح ما استطعنا، ونعمل على لم الشمل ووحدة الأمة، ونتحرك نحو الاقتراب أكثر وأكثر من إخواننا الملتزمين بمنهج الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي، ومن نسج على منواله مثل الشيخ ربيع بن الهادي المدخلي، من أجل معرفة طريقة منهجهم في الفهم والفقه والتفكير، خاصة وأنهم يقولون أنهم يبدون اهتماما وحرصا على معرفة الدليل النقلي القاطع، والبرهان الساطع، والقرينة والحجة والشاهد في كل مسألة من مسائل الدين، عقيدة وشريعة، عبادات ومعاملات، وهذه قاعدة تحسب لهم ولا تنكر عليهم لولا أنهم يعتقدون في أشياخهم الكمال الغير قابل للنقد والمراجعة، ومع ذلك يقولون لك: كل واحد من مشايخنا يؤخذ منه ويرد إلا صاحب ذلك القبر ويقصدون به محمداً رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- تقليدا لإمام دار الهجرة الإمام مالك، لا شك أن في هذا نوع من التناقض؟!. يفهمون الكتاب والسنة بعقول مشائخهم خاصة سلفهم القريب، ثم يصرون على أن كل واحد من أولئك الأسلاف يؤخذ من كلامه ويرد؟!،

كأن دور العقول ينحصر في القبول والرفض، أما أن يكون لهم اجتهادا خاصا بمشاكل واقعهم وزمنهم فهذا مستحيل لأن المشائخ من سلفهم قد أحاطوا علماً بكل ما سيحدث في الأزمنة القادمة، وبكل مشاكلها الغيبية، وما عليهم إلا تطبيق القياس السلفي الجاهز، وتفصيله على كل مشكلة مستجدة ومستحدثة، وكفى السلفيين الاجتهاد والتفكير ووجع الدماغ والفكر. والعقل حقيقة، ما خلقه الله إلا للتأمل والتفكير والبحث عن الحق والتواصي به.

إن السلفيين القائلين بمنهج الشيخ محمد بن عبد الوهاب التميمي من أبناء أمتنا، يتكبرون على الحوار والجدال إلا فيما بينهم فقط، وممن هو متشبه بهم، ولا يتشبهون إلا بأسلافهم من مشايخ الوهابية وذلك ديدنهم وشغلهم الشاغل. وعندما تتأملهم في نقاشهم ومسلكهم تبرز أمامك حقيقة غربتهم عن واقعهم، وتدرك مدى انقطاعهم عن عصرهم، وعند الاقتراب منهم بالحوار السمح والجدال بالتي هي أحسن والتواصي معهم بما تراه حقا، لا يقبلون ذلك، وقد يمقتونك ويزدرونك ويحرضون على ازدرائك، مع أن التواصي بالحق أهم طرق الإيمان المنجي من الخسران، ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾ [العصر]، والإنسان جدالي بفطرته بشهادة القرآن الكريم نفسه: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾ [الكهف: ٥٤]، والجدل في نظرهم يؤدي إلى الخصومة والغل والحسد والصراع والعداوات. مع أن الجدل هو الذي يعطي للحياة معنى عندما، تتلاقح الأفكار والثقافات والمعارف والعلوم بين الشعوب والقبائل، عبر التعارف والحوار والموعظة الحسنة، والجدل بالتي هي أحسن، كما أمر الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم صلى الله عليه وآله وسلم أن يعض أتباعه بالحسنى، ويجادل المخالفين له في الملة بما هو أحسن من الحسنى.

السلفيون من القائلين بمنهج الشيخ محمد بن عبد الوهاب التميمي يزعمون أنهم يطبقون سنة النبي محمد بن عبد الله صلى الله عليه واله وسلم، لكنهم يكرهون الجدال بالحسنى وغير الحسنى، ونبينا الكريم صلى الله عليه واله وسلم جادل وناقش. لقد حاور الكفار والمنافقين وأهل الكتاب حتى الجن تحاور معهم واستمعوا له. وتحاورت الملائكة مع رب السموات والأرض، ولولا الجدال بين المرأة وزوجها لما ظهر الحق والعدل وسماع الشكوى وإنصاف المرأة المجادلة في القرآن.

نحن نعتقد أن مسألة النفور من الحوار المبني على الإحترام والأخوة في الدين والوجود يسبب أزمة للعقل المسلم، تبعد المسلمون عن فهم واقعهم وكيفية التعامل مع غيرهم، خاصة إذا كان ذلك مقرونا بهيمنة فكرة جمود حركة التاريخ فلا جديد فيها ولا تجديد، وأن الأفكار لا تتطور والحياة لا تتغير والوسائل لا تتجدد والمشاكل لا تختلف، كأن التاريخ لا يتحرك إلا مرة واحدة حدثت في فجر الإسلام وعصور الخيرية الثلاثة التي تلته، التي نتفق جميعا على أنها حددت المنهج الصحيح لاستنباط الأحكام الشرعية من الذكر الحكيم

ولكن هذا الإعتقاد لا يعني أن التاريخ يعيد نفسه، وأن الناس نسخا مكررة عن تلك الحقبة من العصر الذهبي للإسلام، والأنكى من ذلك والأمر أن نصر على تربية الشباب على التلقين والتلقي والمشافهة والترديد والتكرار والاجترار، وأن كل محاولة للتجديد هي بدعة في الدين، وهذا بالتأكيد لن يشجع المبتدئ على إبداء الرأي لتأكيد الفهم، وتشجيع المبادرة المنضبطة بقواعد الأصول، وهذا لن ينتج عنه الا جيلا مقموعاً فكريا، خانعاً مسلوب الإرادة مرتهناً في تفكيره لغيره، شعاره الطاعة العمياء، ومثله لا ينتظر منه أن يكون له رأي مستقل، يبادر إلى تغيير المنكر في واقعه الحاضر، وهو يعيش في الماضي بأفكار من سبقوه، ويحتقر العقل والتفكير الذي لولاه لما عرفنا أن النقل هو الدين الحق؟. ولكن يبدو أن فاقد الشيء لا يعطيه، وهناك أزمة فكر وفهم في منهج التفكير عند أخينا السلفي المقيد بمنهج الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي برز في وقت وبيئة مختلفة تماما عن متغيرات عصرنا المعاش، فهو يردد ليل نهار دون كلل ولا ملل أقوال مشايخه من السادة الكبراء تلاميذ محمد بن عبد الوهاب التميمي النجدي، وما يقوله الشيخ ربيع بن الهادي المدخلي مع الإقرار بفضلهم وحسن نواياهم، ولكن الخطير اعتبار تلك الأقوال هي والقرآن والسنة سواء بسواء.

نحن لا نفتري على أحد، إذ قلنا أنه جانب الحقيقة من يدعي أن فهم أي شيخ من المشايخ هو الكتاب والسنة، باعتبار أن الرسول وحده صلى الله عليه وآله وسلم دون سواه أوحي له القرآن وفهمه، وبعث لينقل للناس رسالة خالقهم، ويعلمهم الحكمة وهي استنباط الأحكام من الرسالة ليتم الاحتكام إليها والحكم بها، وكون الفهم قاصرا وضيقا إذا قيدناه بفهم بعض المنتقين من شرّاح البخاري ومسلم وأصحاب السنن، ويعتمدون على بعض مفسري القرآن اعتمادا كليا، وكلهم بشر غير معصومين من الخطأ، فكيف يرتهن أحدهم بأفكاره ومعتقده على من كُتب عليه السهو والخطأ والنسيان، وغير المبرأ من التدليس والتلبيس؟، وفي الأخير تسمع من يقول لك أنا أفهم الكتاب والسنة على فهم السلف، مع أن القرآن الكريم لم ترد فيه آية يقول الله فيها : أفلا يتدبرون القرآن على فهم السلف، والأسلاف القدماء رحمهم الله! منعوا تلاميذهم من تقليدهم وقالوا لهم خذوا من حيث أخذنا (أي القرآن والسنة)، ولا تقلدونا ولا تقلدوا الثوري ولا الأوزاعي ولا الشافعي ولا مالك ولا ابن حنبل، وإخواننا السلفيون من أبناء المنهج الوهابي خاصة المداخلة المعاصرون يقولون لنا هذا الكلام، وهم يعلمون أن التقليد دون تمحيص واع لا يكون إلا للإنسان الذي في عقله خفة وسفه، والذي هو جاهل وعاجز لا يعلم من القرآن والسنة إلا أماني، كما قال جهّال أهل الكتاب من اليهود، ولا يجوز تقليد العلماء إلاّ لمن لا يستطيع الفهم ولا الفقه ولا يستطيع أن يتدبر أمور الدنيا والدين، والعاجز عن الاستنباط ومعرفة الحلال والحرام البين والواضح، فالاجتهاد واجب على كل مسلم ومسلمة، بل لا يجوز التقليد إلا باجتهاد في البحث على من يمكن تقليده، أما من يستطيع تدبر كلام الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، الحصيف في رأيه وليس عنده زيغ ولا ميل ولا انحراف فينبغي له أن يبحث عن الحق في مظانّه، ولا يرهن تفكيره لغيره ومتى ما وجد الحق اتبعه

لأن الإجماع هو ما وافق الحق وإن كنت وحدك. قال تعالى : ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ :٤٦]. وليس هناك تناقض بين العقل والنقل لأن النقل الصحيح لا يناقض العقل الصريح كما ورد عن أغلب العلماء السابقين المحققين رحمهم الله!.

لقد شبه حجة الإسلام الغزالي العقل مع الوحي بأنهما نور على نور، ولم يخاطب الله سبحانه وتعالى في القرآن إلا العقلاء، لا المجانين ولا فاقدي البصر والبصيرة المرتهنين بعقولهم للآخرين ومسلوبي الإرادة والقوة، ورسولنا الكريم يقول : "المؤمن القوي عند الله خير من المؤمن الضعيف". والضعيف هو الغير واثق من نفسه البليد في إيمانه، فهو الضعيف مادياً ومعنوياً، ولا شك أن الذي يلغي عقله وتفكيره يلغي حريته وآدميته وإنسانيته، لأنه يحتقر عقله، ويحتقر من يفكر ويتدبر ويتأمل ويتعظ، وينزل إلى مرتبة البهائم والدواب غير المكلفة.

إن الفكر الإسلامي سيتورط في مأزق إذا وافق من يأمره باتباع مقولة: (أطفئ سراج عقلك وأتبعني)، وهذا الشعار كان شعار الكنيسة المسيحية في القرون الوسطى في أوروبا، ومن يروج هذه المقولات يجعل من السلف الصالح رضوان الله عليهم كالباباوات والأحبار والرهبان الذين إذا ربطوا شيئاً في الأرض فقد ربطه الله في السماء، كما يدعون، لأنهم يعتقدون بأن الباباوات ورجال الدين يمثلون الله في الأرض، ويتكلمون نيابة عنه.

إن مشكلة مقلدوا هذا المنهج أنهم يعتمدون على الثقة وليس على الدليل كما يعتقدون، دون إدراك لحقيقة أن الفقهاء من السلف والخلف هم حمّالوا أدلّة، وليسوا أدلّة، فالحامل للدّليل ليس كالدّليل، والرجال يعرفون بالحق وليس العكس،(أعرف الحق تعرف أهله) كما قال الإمام علي كرم الله وجهه، وليس العكس أيضاً !.

لا ينكر إلا من دمر الغبش بصيرته فرانت الجاهلية على عقله وتنكبت أفكاره جادة الصواب، أن العقل ينشط ويزدهر بالإطلاع على كل الأفكار، دون إقصاء، بشرط قراءتها قراءة نقدية عالمة، وهذه المرتبة الأولى من مراتب العقل (العقل الكسبي) التي صنفها حجة الإسلام الإمام أبي حامد الغزالي، يليها المرتبة الثانية للعقل وهو العقل الذوقي، الذي تربّى فيه العاقل على الالتزام بما عرف من الحق، ليصل بذلك إلى التقوى، في انتظار أن يمن عليه الله بالعقل الوهبي والعلم اللدنّي، (واتقوا الله ويعلمكم الله). فلا يكفي المجتهد قراءة باب واحد من أبواب العلم، بل يجب عليه الإحاطة بالمصطلحات والتاريخ واستخدام أدوات مساعدة شتى، وهو أمر لا يعترف به السلفيون الوهابيون والمداخلة جملة وتفصيلا. الذين يرون التاريخ على صورة مقلوبة، ولا يخرج المسلم المؤمن المتيقن، من محاورتهم ومحاولة فهمهم إلا بالإحباط والأسى وأحياناً العداوة، بسبب التكفير الذي يناله منهم إذا خالفهم. حتى وإن كان كلامه مبنيا على حقائق قطعية مثل كروية الأرض ودورانها، عندهم من يردد هذه الحقيقة المؤكدة كافر مرتد يستتاب أو يقام عليه الحد.؟ !.

لا شك أن المسلم المؤمن طالب العلم لا يرى في التفاسير مثلا إلاّ مصادر يستأنس بها، فليست هي النصوص المقدسة؟، وليس كما يدعي البعض أنه كلما رجعت إلى الخلف عثرت على النصوص الأفضل، وهكذا فتفسير الطبري خير من ابن كثير، وابن عباس خير من الاثنين، لقربه من مستودع الحقيقة النهائية.. وهو أمر قد يمر على بعض العقول بإغراء مناسب، ولكن تأمله لا يقود إلاّ إلى كارثة فكرية؟، لأن القرآن تحتشد فيه مفاهيم كثيرة وضعت لتضيء حقائقها مع الزمن، وإلاّ اعتبرنا القرآن جاء محصورا لقوم بعينهم وزمن محدد، وهو قول لا يقوله نفس أنصار التيار المتسلف، وهو دليل جديد على الدوغمائية، أي عدم القدرة على اكتشاف التناقض داخل نفس الفكرة، والإصرار عليها إلى الرمق الأخير، حتى لو قامت كل الأدلة ضدها.. والنكبة الأخرى هي الإبحار بزورق ضعيف كالجندول مصمم لجدول رقراق هادئ، في بحر لجِّيٍّ بدون بوصلة وإسطرلاب وخارطة ومتانة قادرة عل تجاوز أعتى الأعاصير المعروفة.

كوارث عقلية متراكب بعضها فوق بعض: تعطيل القرآن الدستور الأساسي للأمة وشريعتها، ثم إلغائه ونسخه وتجميد حركته مع الزمن من حيث لا يشعرون. وتعطيل عقلي في فهم حركة النصوص، والعلماء فقط هم الذين يعرفون أن هناك دوما علاقة بين الحكم والعلة، وأن الحكم يدور مع العلّة وجودا وعدما، وهو ما برع فيه علماء الإسلام قديما ويحتاج للتجديد، أي بناء الفكر الديني على نحو عقلاني معاصر، يستوعب المستجدات ويؤكد الأصول والثوابت، بتأسيس علم خاص يعمل على تجديد الاستنباط وعصرنته، وهو نفس الفكر الذي دفع الإمام أبوحنيفة النعمان في عصره وعن قصد، عدم اعتماد النصوص غير القرآنية إلا من خلال حركة العقل، وأن حديث الآحاد الذي هو أغلب الأحاديث يفيد (غلبة الظن) وهو بذلك لا يكون قطعيا، والمعنى الذي أراده (أبو حنيفة النعمان) بحركته العقلية لفهم النصوص والأحكام، في جو من العقلانية المنظمة، كلفته حياته مسموما بعد السجن والتنكيل، في جو الاضطراب السياسي والاضطهاد العقلاني وطغيان السلطة واستبدادها، وقد تعرض منهجه العقلاني هذا إلى حرب شعواء شنت عليه من دعاة السلفية القدماء الذين امتلأت كتبهم بوصف الإمام أبي حنيفة بأفضع النعوث، واتهامه بأبشع الموبقات، غلطوه وفسقوه بل وكفروه، دون دليل أو حجة غير تعقله في استنباط الدليل.

المؤلم حقا هو استمرار هذا النهج في الهيمنة على العقل المسلم، في أمة مصابة بفيروس الجاهلية، فلا شك أن هذا الفيروس أصاب الأمة بوباء فقدان المناعة الحضارية المكتسبة بالإسلام، فشلّت مقاومتها، وما لم تعيد الاعتبار إلى العقل المسلم والعمل على تحريره من أسر الجاهلية المعاصرة، فلا يمكن التوقع بغير غرق العالم الإسلامي، ذلك الغرق الذي نرى بداياته اليوم، وهو يناقش مشكلة إرضاع المراهق، لرفع مشكلة الخلوة مع أجنبية

وهو أمر متوقع لقوم كفوا عن العمل واشتغلوا بالسفاسف والجدل السلفي العقيم، كما كانت نهاية بيزنطة، يناقشون في جو كسول رتيب، من الثرثرة المملة، عن جنس الملائكة؟ هل هم ذكور أم إناث؟، والشاب الذي يختلي بامرأة أجنبية عنده طريقة ممتازة لدفع الحرمة، وليس عليه سوى ان يلتقم ثدي تلك التي تعمل معه في نفس القسم، فيمصه، لتصبح المرأة حرام عليه لوجود نص بذلك؟!، بعد خلع النص من كل إحداثياته وتاريخيته، ومدى صحته، لنسبح في بحر غامض من النصوص، ولنفتري على الله الكذب وباسم الله ذاته.. فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فهل حان الوقت لمراجعة مزعجة للتراث؟؟، ثم تنقيته من الأوبئة الفكرية الموروثة على امتداد التاريخ.

خطبة الكتاب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والصلاة والسلام على شفيع كل من لله أسلم، سيدنا محمد النبي القرشي الهاشمي العربي الأكرم، وعلى آله الطيبين الطاهرين، والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين، والرضى على الصحابة الصادقين المخلصين، حفاظ الشريعة وحماة الدين، ومن اتبع سبيلهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد،،،

حينما تسموا الطموحات فوق الأنانيات الضيقة، سابحة في فضاءات الإنسانية الرحبة، ستتعدى دنيوية الشهوات المغررة التي ما إن تنكشف حتى تصبح عيوباً في حق أصحابها، عندها تكون مقاصد الخير عند هذا الإنسان باتساع الكون وما فيه من إبداعات المبدع العظيم، وتتحول هذه الرؤية إلى وحدة متكاملة ولوحة متناسقة مشبعة بجمال رباني منسجم مع قوله تعالى مخاطباً رسوله المصطفى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ثم تعلن أن الإسلام رسالة إلهية وهي وإن جاءت بلسان عربي مبين إلا أنها كانت للناس كافة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ **[سبأ:٢٨].**

من هنا فإن الحديث عن شمولية الإسلام وعدالته وسماحته ورحمته وما فيه من خير ومنفعة للإنسانية جمعاء، لا ينبغي أن يكون على ألسنتنا كلاماً منمقاً من غير جوهر ولا مضمون، بل يجب أن يكون مشبَّعاً بمعانيه العظيمة السامية بحيث ينعكس كل ذلك على وعينا وتصرفاتنا مع هذا الكون بناسه وجماده وحيوانه ولنا في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسوة حسنة، من أجل الوصول إلى النموذج الإنساني القويم ،الذي يرى أن المعرفة الإنسانية نسبية من حيث قابليتها للخطأ والصواب ، وهذا ما عرف به أئمة الهدى من علماء المسلمين حين نقل عنهم قولهم (رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب) وكان هذا التزاماً بما جاء في الذكر الحكيم: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤]، وبدون هذه القاعدة الربانية لا يمكن إقامة أي حوار بين مختلفين من أجل التوصل لمعرفة الحقيقة ووصولاً للحق والتواصي به والعمل بقواعده والوقوف مواقفه بغية إدراك العمل الصالح وبلوغه وتحقيق مقاصده الربانية السامية.

ومن أخطر الأمور التي أزّمت العقل المسلم، تجاوزه لمراتب علّة خلق الإنسان، فوضع العبادة أولا، وهذا مخالف تماما لمراد الله سبحانه كما حدده كلامه المنزّل، (القرآن الكريم)، الذي بين لنا أن الاستخلاف أولا ثم الإعمار ثم العبادة بمفهوم الدعاء للإستعانة بالتوفيق الإلهي لإنجاز المهمتين الأساسيتين وهما، أن يكون الإنسان خليفة الله في أرضه، ولن تتحقق هذه الخلافة إلا بالمهمة الثانية وهي ممارسة بذل الجهد كاملا فكريا وعضليا لإعمار الأرض وتطويع الإمكانيات لتحقيق رفاهية الإنسان وتسهيل معيشته، ومن هنا نرى نحن أبناء المدرسة الفقهية المالكية أن تحقيق مقاصد الشريعة مفتاح لفهم الدين وصحيح تطبيقه، هذه النظرة الحضارية تختلف تماما عن رؤية الأعراب وفهمهم الجاهلي للدين، ليظهر الفرق بين سماحة الإسلام ورحمته، وتيسيره ورفعه لكل حرج، وهمجية العنف الجاهلي الذي رسخه الخوارج على امتداد التاريخ وشوهوا به جمال الدين الإسلامي. نعمل في هذه الرسالة على توضيح ذلك والله المستعان وعليه التوكل وحده دون سواه.

مفهوم التقدم في الإسلام

قال الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾. [البقرة:٣٠-٣٣].

لن يغيب عن نباهة المتأمل في هذه الآيات واضحة الدلالة، أن السبب الأساس لخلق الإنسان، أن يكون خليفة لله في الأرض، التي خلقت لآدم وذريته ولم يخلقوا لها. وقد ميزهم خالقهم لممارسة مهام الاستخلاف بالقدرة على التعلّم، وتوظيف معلوماتهم في الابتكار والإبداع والتصرف فيما خلقه الله لهم، -الكون وكل ما فيه-، ذلك الخلق الذي أذهل الملائكة وعرفوا أنهم أمام أعظم مخلوقات الله المبدع، الدّالة على عظيم قدرته، فكانت استجابتهم لأمر السجود، لعظمة الله المتمثلة في آدم وقدراته التي ميزه الخالق بها على بقية المخلوقات.

ولن يغيب كذلك عن نباهة المتأمل المستعين بالفتح الإلهي ليفهم دلالات الآيات وحكمتها قبل أحكامها، أن الاستخلاف لن يتحقق إلا بتوظيف عاقل للمعلومات التي علمها الله لآدم ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ ، تعليما تعريفيا مع قدرة على التصرف بجهده العقلي والعضلي للقيام بأعباء الاستخلاف، خلقا وإبداعا وابتكارا وتصرفا، في كل ما هو موجود في الكون الموضوع تحت تصرف آدم وبنيه من بعده، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾. [إبراهيم:٣٢ -٣٤]، وقال جل من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان:٢٠]، ويؤكد على أن من يخشى الله حقيقة ويعرفه معرفة تملأ قلبه خشية، هم العلماء الذين يتدبرون ويتصرفون فيما سخره الله لعباده، بقراءة تأملية لكتاب الله المنظور (الكون) على هدي من كتابه المسطور (القرآن)

فيقول جل جلاله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧ ، ٢٨].

هذا يؤكد لنا أن الله يباهي ملائكته في الملإ الأعلى، بما يقوم به الإنسان من ذرية آدم من إبداعات وقدرات عالمة حكيمة، يتصرفون بها فيما سخره الله لهم ووضعه تحت تصرفهم، لإعمار الأرض المستخلفون فيها، وهنا يبرز المعنى الدال على مفهوم (الجهاد الأكبر). أي بذل أقصى حدود الجهد لتحقيق الاستخلاف بإعمار الأرض واستعمارها، وتسخير إمكانياتها لراحة بني آدم ورفاهيته، ولا شك أن هذه المهمة في حاجة لجهد عظيم، وإرادة قوية، تجعل اللجوء إلى الله طلبا للعون والدعم والتوفيق ضرورة، وهنا يكون معنى الدعاء بالمعنى الذي ورد في هذه الآيات: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٥- ٥٨] وقد سأل الصحابة رضوان الله عليهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن (الدعاء) قال هو (العبادة)، روى الترمذي في سننه وغيره، عن الصحابي النعمان بن بشير ط حديثا صحيحا حسنا، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: **(الدُّعاءُ هُو العِبادةُ، ثمَّ قرأَ:** ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾**)**. وعبادتي هنا لا معنى لها الا دعائي، وهذا يفسر المعنى الحقيقي لدلالة الآيات السابقات، «يعبدون» بمعنى «يدعون»، فالله غني عن عبادة خلقه، فما يريد منهم من رزق أو طعام، ولكنهم يعبدونه بالدعاء لتمكينهم من القيام بأعباء الاستخلاف.

هذا يضع الإنسان في مفهوم غير قابل للتأويل المخالف، ولا يتطرق إليه الشك، أن (الإنسان) خلق ليبدع ويبتكر ويتصرف بجهده العضلي والعقلي، جهادا مفروضا عليه فرض عين، لإعمار الأرض التي استخلف من الله فيها، فالهدف الأساس هو الاستخلاف، والعبادة وسيلة يستعين بها على أداء مهمته بطلب الدعم والتوفيق والمساندة من الخالق القادر المبدع الرحمن الرحيم، الله سبحانه وتعالى في عليائه باهى الملائكة بقدرة أعظم خلقه على التعلم والقدرة على التصرف بإرادة حرة في توظيف ما تعلمه، لم يباهي بعبادة آدم وحمده لله بمجرد انتباهه ونفخ الروح فيه عطس فقال : (الحمد لله)، بل بقدرته على التعلم والتصرف، لدرجة أمر الملائكة بالسجود لعظمة الله التي ظهرت في هذا المخلوق العظيم، ومن هنا يكون المفهوم الحقيقي للتقدم هو تحقيق أعلى معدلات الرفاهية باستغلال ما سخره الله لبني آدم من إمكانيات

وإن العمل على تسهيل حياة البشر وتحقيق رفاهيتهم، بالعمل والإبداع، من أفضل الأعمال الأساسية التي يحبها الله في خلقه ويباهي بها ملائكته، بذلك تدرك مقاصد الشارع الحكيم، بتحقيق مصالح العالمين (شركاء الوجود) المرسلة، خاصة بني آدم الذين اختصهم الله بالتكريم، فمحبة خلق الله دليل على حب الخالق، وإعمار الأرض أداء مفروضا تأكيدا لسبب خلق بني آدم، وتحقيقا للاستخلاف الذي أراده الله من خلق آدم وبنيه.

الحقيقة الأخرى أن هذا الإنسان في أمس الحاجة إلى مجتمع يبدع من أجله، ويستعين بأفراده لتعزيز ذلك الإبداع، فهو اجتماعي بطبعه، لذلك فالحاجة لعقد اجتماعي، ينظم العلاقة بين أفراد المجتمع ضرورة ملحة لازمة لتحقيق مهمة الاستخلاف، فالشريعة المنظمة للمجتمع وتعزيز رقي أفراده ومدنيتهم، مجال آخر يبين عظمة هذا المخلوق المستمدة من عظمة خالقه، قال تعالى في الآيات ٢٦، ٢٧، ٢٨، و ٢٩، من سورة ص: ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب (٢٦) وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار (٢٧) أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار (٢٨) كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾. من هنا يتأكد لنا أن العدل الاجتماعي ونظام الحكم الرشيد، من أهم مهام الاستخلاف في الأرض، وكما هو واضح بيّن من البيان الإلهي الذي تبيّنه هذه الآيات البيّنات، وهذا لن يتحقق إلا إذا كان الخليفة الرباني هو الذي يحكم بين الناس بشرع الله وأمره، ولا يحكمهم لتحقيق مطمعه بمنطق (لا أريكم إلا ما أرى)، فالفرق بيّن واضح صريح بين أن يحكم بين الناس، كما كان سيدنا داود عليه السلام، أو يحكم الناس كما كان فرعون. فكل حاكم لا يكون إلا فرعونا، مفسدا في الأرض متجبرا، والفساد ضد الإعمار، والرفق ضد التجبر، وهذا هو الفرق بين المصلحين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، والمفسدين في الأرض، بين المتقين والفجار، وهذا ما فهمه الصحابة من تعاليم الشرع الحكيم الذي استوعبوه على هدي ممن أوحي له النص (القرآن) وفهمه (السنة)صلى الله عليه وآله وسلم، دون غيره، فكانت ممارستهم للخلافة تقتصر على الحكم بين الناس بما أنزل الله (أطيعوني ما أطعت الله فيكم) كما قال الصديق ط وهو يقدم نفسه للناس حكما اختاروه بإرادة حرة ليحكم بينهم بما أنزل الله فقط ولا يحكمهم، بل لا يتجرأ على أن يعلوا عليهم وهم من ولوه تنفيذ أمرهم، وهكذا كان النهج والمنهج طيلة فترة الخلافة الراشدة.

لا شك أن الأمر تغير بعد أن فقدت الخلافة رشدها، وتحول الخليفة من (حكم) إلى (حاكم)، منحرفا عن ممارسة الخلافة الراشدة على منهج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الملتزم بقواعد الشرع الحكيم، إلى الملك العضوض على منهج فرعون، ولتوضيح ذلك قال عز من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل ٩٠ – ٩٣]، و قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي تتخذون أيمانكم وسيلة للغدر والخديعة والخيانة تطيبون بها نفوس الناس ثم تخونونهم وتخدعونهم بنقضها، وإنما يفعلون ذلك لتكون أمة، وهم (الحالفون)، أربى وأزيد سهما من زخارف الدنيا من أمة وهم (المحلوف لهم)، في مثال لاستهجان الانتهازية والتزييف وهي صورة قريبة مما يحدث في البلاد التي يعمها الفساد السياسي، خاصة في الأنظمة البرلمانية، حيث يتملق المرشحون الناخبين بوعود ينقلبون عليها بعد تحقيق مآربهم، وصوّر ذلك كالمجنونة التي تغزل نسيجا ثم تنقضه أنكاثا، وهذا يناقض مقاصد الشرع الرباني الذي يأمر بالتعايش بين الناس في مجتمعات تبنى على قواعد عدل فطري طبيعي، ديدنه الفضل والإحسان في كل مقصد وغاية وعمل، ناهيك عن دعوته الملحة لكل ترابط أسري واجتماعي إيتاءً وتعاطفا مع كل ذوي القربى، باعتبار الأخوة بين البشر (كلكم لآدم)، ذلك الترابط الذي لا يكون إلا من أجل التعاون على البر والتقوى واحترام المعروف الذي تعارف الناس بفطرتهم السليمة على سلامته وصحته حتى بات عرفا يعاب على كل من يخرج عليه، ومقاومة كل عدوان وبغي وكل منكر أنكره الناس بفطرتهم الإنسانية السامية.

مما يتقدم يتضح أن التطور الحقيقي وعلّة الخلق هو تحقيق مقاصد الشرع في الاستخلاف، بتسخير الإمكانيات لتحقيق مصالح الناس المرسلة رفاهيةً وعدلا، وأن العبادة الربانية الحقيقية هي اللجوء إلى الله بالدعاء لتمكين العابد من القيام بمهام الاستخلاف، وأن أكثر الناس خشية لله وقربا منه هم العلماء المحققين لمفهوم الاستخلاف، بتحقيق القدرة على الابتكار والإبداع الذي يبين عظمة الخالق في عظمة مخلوقه (بني آدم)، الذين خلقهم ليكرمهم، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠-٧٢]

تكريم ومسئولية وانتماء واختيار لإمام يتحملون مسؤوليته يحاسبونه بعدل إلهي لا يقترب منه الظلم مطلقا، المشكلة في سلامة الاختيار ببصر وبصيرة، فمن كان أعمى في اختياره سيكون أعمى في الدارين.

هذا هو التطور والرقي والتقدم، وهذه هي الأسباب الحقيقية لخلق الإنسان ومهمته الأساسية التي توصله إلى الرضاء الرباني، ليكون في زمرة من ن ورضوا عنه، فأين المسلمون اليوم من هذه المفاهيم ؟؟!!.

لا يغيب عن فهم الفاهمين المتابعين لكتاب الله، المتأملين في آياته على هدي من أرسله الله بالحق بشيرا ونذيرا صلى الله عليه وآله وسلم، ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء : ١٠٥]،إدراك أن الله ميز آدم وذريته من بعده بما يمكنه من إدراك الحق إنه (العقل)، ذلك المخلوق المعجز، الذي لم يخلق الله أكرم منه، فبه يعرف ويعبد، روى الطبراني في المعجم لأوسط عن أبي أمامة ط أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: **(لما خلق العقل قال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر فقال وعزتي ما خلقت خلقا أعجب إلي منك بك آخذ وبك أعطي وبك الثواب وعليك العقاب).**

وللعقل مراتب ثلاث، العقل الكسبي وقد جعله الله لكل إنسان بر وفاجر مؤمن وكافر، وسيلة الإنسان للوصول إلى (علم اليقين)، يستعمله في التعلم والتعليم والتصرف، علومه مكتسبة بالتعليم والتجريب، تجد الكثير من المبدعين الفاهمين المخترعين من جميع الملل والنحل والعقائد، ولكنهم مارسوا بعقولهم ما خلقهم الله لأجله، إعمار الأرض، فكانوا مبدعين متفوقين، حققوا المراد الإلهي من خلقهم دون اعتبار لكفر أو إيمان، المراد الإلهي تحقق فيهم، إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، أراد الإنسان مبدعا فكان، بإرادة الله المسيرة لإرادة المبدع.

والمرتبة الثانية هي العقل الذوقي، الموصل إلى إدراك (عين اليقين) يبني المعرفة على المشاهدة والشهادة بها، وهو عقل يهتدي به الناس الى منظومة القيم لا يدرك حقيقة الأشياء إلا بمعايشتها، مثل المعرفة الذوقية التي لا يدرك كنهها إلا بالتذوق، فبالذوق فقط يمكن معرفة الفرق بين الحلو والمر والحار والمالح، وكذلك الإيمان فهو ذوق قبل كل شيء ومن ذاق عرف حلاوته في قلبه، وهذه المرتبة من الإيمان لا تدرك إلا بإعمال العقل والتأمل، يقول جل من قائل: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩٢]

فالتأمل العقلي في ملكوت الله يوصل كل عاقل إلى حقيقة الوجود، فيدرك بها عظمة الموجد سبحانه، يتذوق بموجب ذلك حلاوة الإيمان بوجود الخالق وقدرته، ويدرك أن هذا الوجود لا بد له من سبب بعد أن عرف المسبب، فيقضي كل وقته وفي كل أحواله في ذكر الخالق المسبب، محاولا تذكر سبب إيجاده، ذكرا ايجابيا يحقق الاستخلاف والإعمار، خوفا من السقوط في الخزي بجهل سبب الوجود، وهو عذاب معنوي يؤلم العقلاء أكثر من إيلام العذاب الحسي بالنار المؤلمة ماديا، وهذه هي مرتبة التقوى، وهي تبدأ بمعرفة الله الحق والالتزام بأوامره ونواهيه، فالتقوى ليس أن تعرف، بل هي الالتزام بما عرفت من الحق، (تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) العصر، هذه المرتبة توصل الإنسان إلى أن يكون متهيأ لتطور العقل إلى مرتبته الأعلى وهي العقل الوهبي القادر على استلام العلم اللدني، وبه يدرك الإنسان معرفة (حق اليقين)، ليعرف بها الإنسان حقيقة الأشياء بعد أن عرفها تصورا ثم مشاهدة، ثم المعرفة الكاملة العالمة، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقد ذكر هذه المراتب في آية واحدة فقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [النور:٣٥]، فالمشكاة مثال للعقل الكسبي، فكما أن المشكاة مستعدة لأن تكون وعاء للنور، فكذلك النفس بالفطرة مستعدة لأن يفيض عليها نور العقل، ثم إذا قويت بالعلم ومعرفة مبادئ المعقولات فهي الزجاجة (علم اليقين)، فإن بلغت درجة تتمكن من التصرف في المعقولات بالفكرة الصائبة، فهي الشجرة ذات أفنان فكذلك الفكرة ذات فنون (عين اليقين)، فإن كانت أقوى وبلغت درجة الملكة والابتكار والإبداع بالحدس المعقول فهي الزيت، فإن كانت أقوى من ذلك فيكاد زيتها يضيء كأنه يشاهدها ويطالعها فهي المصباح، ثم إذا انطلقت في علوم وهبية بعقل هيأه الله بالتجليات اللدنية (حق اليقين)، فهو نور على نور، نور العقل المكتسب على نور العقل المتذوق، الموهوب ربانيا.وإن جعلت الآية مثالا للعقل النبوي فيجوز، لأنه مصباح يوقد من شجرة مباركة نبوية، زيتونة أمّية لا شرقية (طبيعية) ولا غربية (بشرية)، يكاد زيتها يضيء ضوء الفطرة وإن لم تمسسه نار الفكرة، نور من الأمر الرباني على نور من العقل النبوي، يهدي الله لنوره من يشاء.

هذا يبين لنا أن التقدم وصناعته أهم مجال يتعبد به العبد لملاقاة رضاء ربه، وتحقيق سبب وجوده، والدعاء،هو التعبد الذي يطلب العبد به العون من الله لتحقيق المقصد الأساس، وهو إعمار الكون بما يفيد الخلق لتحقيق الاستخلاف، بهذا يكون الإسلام دعوة للتقدم والتطور تعارض الجهل وتدافع الجاهلية، فكل تفسير خاطئ لعلّة الوجود لا يكون إلا دعوة جاهلية حتى وإن تلبست بالإسلام وحولته لمجرد طقوس، فالجاهلية الدينية، لا تصنع إلا التخلف.

يقول الحق جل وعلا في محكم التنزيل: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس ٩٩-١٠٢]،ويقول سبحانه ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩-٢٠]، وقوله جل من قائل: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥) ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣-٣٦]، إن المتأمل في الآيات من السور الواردة أعلاه يتضح له حقيقة المسئولية الملقاة على عاتق بني آدم، تلك المسؤولية الناتجة عن إرادتهم الحرة في الاختيار، بإعمال العقل الذي سيدلهم حتما على حقيقة وجود الخالق المبدع الذي تجلت عظمته بخلقهم وما خلق لهم في الكون، وتمكينهم من استغلاله واستعماره والتصرف فيه، إن مجرد التأمل فيما حققه هذا الإنسان من إبداعات وابتكارات مذهلة وتطور عظيم يدل على عظمة هذا المخلوق العجيب الدّال على عظمة خالقه، حيث لا يمكن تصور أنه خلق اعتباطا أو مصادفة أو نتيجة لتطور وارتقاء وانتخاب قامت به الطبيعة المجردة دون إرادة غائية تحركها، عظمة الإنسان تدل على عظمة خالقه الذي أراده خليفة له في أرض خلقت لأجله، حتى تظهر فيها قدرته على الإبداع والتألق، الجديرين بأن تؤمر الملائكة بالسجود لعظمة الله التي ظهرت فيه، وتجلّت به، فهو أعظم خلق الله دون شك. نقيض ذلك غياب العقل وعدم القدرة على التأمل والتدبر الذي سيوقعهم في خطأ يجرهم إلى الخطيئة وأكبر الخطايا إنكار الخالق في وجود المخلوق، وإنكار المؤثر في وجود الأثر، فلا شك أن كل أثر يدل على أثير، وكل مخلوق لا بد له من خالق، وهذا النظام الدقيق الذي يسير عليه الوجود لا يمكن أن يكون صدفة لا بداية مقصودة لها، المشكلة تكمن في عدم قدرة العقل الذي يقف عاجزا عن تصور الخالق لعظمته التي تفوق قدرة العقل على التصور.

إن عدم الشعور بوجود الخالق وإدراك عظمة قدرته، ناتج عن قلب طبع عليه وختم، فوجّه العقل في اتجاهات مضللة تصيب البصيرة بالعمى والنظر سليم، وتحوّل الأحياء إلى موتى وهم يتحركون ويتنفسون، ولا شك أنه سيحشر يوم القيامة أعمى عقابا منطقيا لعدم إعمال النظر بفطرة سليمة، عجزت عن إبصار أكبر ما يمكن أن يدل عليه الوجود، الله الموجود في كل شيء، لا يغيب إلا عن رؤية أعمى البصر والبصيرة، وقد يتورط في إنكار وجود الله علماء ومخترعين ومبدعين، وهذا يدل على عظمة خالقهم الذي خلق له مراتب العقول، فكان عقلهم الكسبي الذي وهبه الله لكل فرد من ذرية بني آدم، فكان في جينات خلقهم يتمتع به برهم وفاجرهم مؤمنهم وكافرهم، فلن يدرك الإيمان إلا من نظر لخلقه وخلق ما حوله بعقله الذوقي الفطري السليم غير الملوث أو المضلل، فالإيمان ذوق بالدرجة الأولى يتذوقه المؤمنون بعقولهم الذوقية، الموصلة إلى أعلى درجة في الإدراك البشري بالوصول إلى مرتبة العقل الوهبي، الذي تتجلى عليه المواهب الربانية فيزداد تألقا وإبداعا وصفاء ونقاءا وإنسانية راقية تعيده إلى حالة (أحسن تقويم) التي أرادها الله له وخلقه عليها.

لا شك أن المنكر لوجود الله سبحانه ضال ومضل مهما كانت درجة تألق عقله الكسبي المادي، وقدرته على الإبداع والإبتكار، كذلك من لا يستعمل العقل في الإبداع والتألق والمساهمة في إعمار الكون وممارسة الاستخلاف، يكون قد خالف مراد الله سبحانه الذي أراده خليفة، مهما قضى من وقت في تعبد كهنوتي، يعبد به الطقوس، ويحاكي الأوامر دون تدبر في مقاصد الآمر، ودون إدراك لحقيقة أن الله لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين، الاثنان سواء في عدم إدراكهما لعلة الخلق وأسباب الوجود، وأفضل الخلق من يستعمل أقصى جهده العقلي والعضلي في إعمار الكون واستعماره، مستعينا بالله الخالق المبدع القادر، ولا غاية له في ذلك سوى مرضاة الله والفوز بالجائزة الكبرى أن يلقاه ويكون من الذين رضي خالقهم عنهم ورضوا عنه. هكذا يكون التدين السليم الصحيح، وما عداه لا يكون إلا كهنوتا نهانا الله عنه، ساد في أمم سابقة وأفسد سلامة رسالات رسل سابقين،وأفرز كهان يلوون ألسنتهم بكلام يوهمون به الناس أنه من عند الله وهم على الله كاذبون، ولا يحسب من العلماء من لا يدله علمه على حقيقة الوجود وعظمة الخالق، فالعلماء المتدبرين في ملكوت الله القادرين على قراءة الوجود وموجوداته بإحسان وإتقان، والعاملين بما عرفوه من الحق، هم أكثر الناس خشية لله بعلمهم وعملهم، ومن لا يوصله علمه للخشية يكون من الذين طبع على قلوبهم فهم لا يفقهون، وما ينجزونه من إنجازات واختراعات لا يكون إلا شاهدا عليهم لا لهم، يدل على عظمة خالقهم، ويشهد على ضلالهم. نسأل الله لنا ولكم العفو والعافية.

نحاول في هذه الرسالة توضيح بعض التيارات السائدة بين المسلمين في محاولة للإجابة على سؤال، لماذا التخلف؟؟؟! وعلاقة ذلك بصحة الإيمان. والله المستعان.

الفصل الأول : لماذا التخلف في بلاد المسلمين؟

مقدمة:

من الطبيعي أن لا تكون الإجابة عن سؤال ظاهرة التخلف في بلاد المسلمين، وكيفية الخروج من الأزمة الحضارية الراهنة واحدة، أمام اتجاهات متباينة المرجعيات والأصول، فبينما يؤمن(العالمانيون)أو (الدنيويون) المتسمون تآمرا بالعلمانيين، بالمستحيل الذاتي (أي عدم قدرة الذات بإرثها وماضيها الثقيل على تجاوز محنة التخلف)، ويرون في الحداثة قارب النجاة الوحيد لأمة يرونها غارقة في هيمنة الماضي وأسر التاريخ، يبرز مفكرون وسطيون مجددون يراهنون على الممكن الذاتي بصيغ متباينة مع ما طرحه العالمانيون، مستفيدين من منهج تفكير غير معقد يستند على قواعد طبيعية، وينطلق في بناء أسس فكرية عبر حركة تجديدية متماسكة وضرورية، لتعبئة مفاهيم الحداثة في الوعي الإسلامي، ومن جهة أخرى توليد الممكن، من تزاوج المعاصر بالتراثي وهيمنته عليه، وبذلك أدرك المجددون الملتزمون بمنهج التفكير الفطري الوسطي التنويري، أن الحديث عن التجديد **(لا بد أن يتمتع بالمشروعية التي لا تتأسس إلا في قلب الإطار المرجعي المعرفي لشخصية الأمة الثقافية (الإسلام)، ومن ثم بالضرورة التاريخية التي تعكس الحاجة إلى التحديث).**

التحديث الذي يقف على قاعدة تبدأ بتلك القيم التي تنهض وفقها النظم الاجتماعية والتي يمكن اختصارها، في الانتقال من القيم الكهنوتية الدوقمائية الجامدة إلى القيم الإستشرافية العقلانية المتطورة، أو التحرك من عالم الغيب نحو عالم الشهادة.الأمر الذي يضعهم في مواجهة أخرى لا تقل ضراوة عن مواجهة التيار التغريبي العالماني، ألا وهي مواجهة من يتسمّون بالسلفيين حتى (الإصلاحيون) منهم. فعلى الرغم من رهانهم على الممكن الذاتي **(حيث الذات يمكنها التطور والتقدم دون استعارة لبلس غيرها)**، فإنهم لم يستطيعوا صياغة مشروعهم في ظل معالم واضحة للتعامل مع المعاصرة والأصالة في آن واحد، وفشلهم في المطابقة بين الصياغة النظرية والممارسة العملية للتجديد المنشود، وفساد في فهم دلالات النص ومقاصد الشريعة وحكمة الأحكام، فحاصروا أنفسهم بقيود السلف بالرغم من اختلاف الواقع التاريخي، وفي المقابل يشهد الممكن الذاتي صياغة جديدة في الفكر الإسلامي الوسطي التجديدي المستنير، يتأسس على**(الأخذ بالمعاصرة بطريقة مختلفة قائمة على قراءة نقدية تقدمية، تعمل على توليد ممكنها المعبر عن البعد الحضاري لثقافتها،من رحم التفاعل الواعي مع المتغيرات دون تفريط في الثوابت).**

لن يغيب عن نباهة المتأمل الواعي إدراك أن الخطاب الوسطي التجديدي الذي تمت صياغته بوضوح في مؤتمر (الإسلام بين الأصالة والتجديد) الذي عقد بمدينة قسطينة الجزائرية عام ١٩٧١ م، والذي نظمه الراحل المبدع مولود قاسم رحمه الله، بحضور مئات من كبار الفقهاء والمفكرين والعلماء من جميع أرجاء العالم الإسلامي يتقدمهم الراحل مالك بن نبي رحمه الله،يقوم على صياغة الممكن الذاتي صياغة جديدة، بريئة من التلبس بالتغريب العالماني، أو هيمنة التراث دون وعي وتنقية وتنقيح واستيعاب، ثم تعمل على بعث ممكنها (التراث المنقّى) من رحم تفاعل سويّ مع الحداثة القائمة على روح نقدية متقدمة، هذا التأسيس الذي افتقدته أجيال المصلحون السلفيون الإسلاميون والقوميون السابقون، بالإضافة إلى القيمة المنهجية التي أسس عليها التجديديون الوسطيون الأصوليون منهجهم في تعريف المعرفة، بتقديم الأشياء على حقيقتها، والمبنية على إعادة الأشياء إلى أصولها الطبيعية، وتقديمها معرفيا على طبيعتها المجردة، فكان منهج التفكير الوسطي الأصولي بذلك أكثر وعيا بالحداثة ومابعدها، بحيث أصبح على معرفة بمشكلات التجديد وإشكالياته التي يعمل على حلّها، وتقديم الاقتراحات التي تنقل الفكر من مقاربات التجديد الفردية إلى العمل المؤسسي، ومن التنظير إلى التطبيق، ثم الدعوة إلى فهم الذات والغير لمحاولة معرفة الأسس النفسية والأيديولوجية التي تحكم العلاقة بينهما، ويجدر التنبيه إلى تلك البحوث التجديدية التي تناولها الكتاب الوسطيون الأصوليون، وكتاباتهم المعمقة التي انتهجت منهج تفكير تأصيلي، يستند على إعادة المشكلات إلى بنيتها الطبيعية وأصولها الابتدائية، والبناء على أسسها، ليكون بذلك التفكيك والبناء دورة واحدة متناسقة، تعتمد التمحيص النقدي الجريء، والتجربة العملية، والتصحيح المستمر، الأمر الذي وفر قدرة على إعادة دراسة النصوص دراسة نقدية واعية كدراسة نصوص الفقه، ومقاصد الشريعة، والدراسات النقدية لمناهج التفسير المعاصرة، والعلاقة بين الكتاب والسنة، في محاولة ثورية لدفع عجلة التجديد الإسلامي إلى الأمام.فكان منهج التفكير الإسلامي التجديدي بذلك أكثر وعيا بالحداثة ومابعدها، بحيث أصبح على معرفة بمشكلات التجديد وإشكالياته التي يعمل على حلّها، وتقديم الاقتراحات التي تنقل الفكر من مقاربات التجديد الفردية إلى العمل المؤسسي، ومن التنظير إلى التطبيق، ثم الدعوة إلى فهم الذات والغير لمحاولة معرفة الأسس النفسية والأيديولوجية التي تحكم العلاقة بينهما، ويجدر التنبيه إلى تلك البحوث التجديدية التي تناولها الكتاب المجددون، خاصة أولئك الذين تتلمذوا على يد علماء الأزهر من أمثال الشيخ محمد عبده، والشيخ الإمام محمد ماضي أبو العزائم، والشيخ محمود شلتوت، والشيخ عبد الحليم محمود، والشيخ علي عبد الرازق، والشيخ محمد الغزالي والشيخ محمد متولي شعراوي وأمثال محمد إقبال ومالك بن نبي ونجم الدين أربكان ومخاتير محمد ومحفوظ نحناح والدكتور محمد أحمد الشريف وغيرهم، وكتاباتهم المعمقة التي انتهجت منهج تفكير إسلامي معاصر، يستند على إعادة المشكلات إلى بنيتها الطبيعية وأصولها الابتدائية، والبناء على أسسها، ليكون بذلك التفكيك والبناء دورة واحدة متناسقة، تعتمد التمحيص النقدي الجريء، والتجربة العملية، والتصحيح المستمر، (وتواصوا بالحق)

الأمر الذي وفر قدرة على إعادة دراسة النصوص دراسة نقدية واعية كدراسة نصوص الفقه، ومقاصد الشريعة، والدراسات النقدية لمناهج التفسير المعاصرة، والعلاقة بين الكتاب والسنة، في محاولة منهجية لدفع عجلة التجديد الإسلامي إلى الأمام،وفي هذا نجد أنه من الضرورة بمكان دراسة توجهات القائلين بـ(السلفية) دراسة متأنية لتوضيح الفرق بينها وبين التيار التجديدي المستنير.

(السلفيون) وإشكالية التسلف:

بعد البعثة المحمدية على صاحبها وآله الصلاة والتسليم في القرن السابع من ميلاد المسيح عليه السلام، تجددت الدعوة الى الإسلام كدين إلهي ونظام حضاري ينحو منحى الانعتاق من ظلمات التخلف الاجتماعي، ويسعى للارتقاء بالعقل الإنساني نحو قيم ومبادئ عليا، بدا ذلك التباين بين هذا النظام الإلهي وبين قيم الجاهلية، ومن هنا فقد استعمل القرآن الكريم لفظ (الجاهلية) للتفريق بين العقل الإنساني الذي عرف الله واتبع هدايته وارتقى حضاريا وإنسانيا، وبين العقل الذي أصر على الاستمرار في تبني قيم منحطة تتجلى في رفض الاعتقاد بوجود الله أو تشويه هذا الوجود : ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [آل عمران:١٥٤].أو إنكار وحدانيته، وبالتالي إنكار كل القيم العليا التي جاء بها الإسلام كدين إلهي حنيف، وكمنهاج حضاري يسير نحو غايات سماوية تحقق إنسانية الإنسان: ﴿ إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [الفتح:٢٦]. وأيضا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ ﴾[الأحزاب:٣٣]. ، فالجاهلية كمفردة لغوية لاتعني فقط مجرد تلك الفترة الزمنية في حركة التاريخ والتي سبقت ظهور النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، بل هي تلك المفاهيم والقيم المنحطة التي تبنت عبادة الأوثان والعبودية والرق ووأد البنات وغيرها...، والاحتكام للعنف ونبذ العقل، وتكفير الغير لأغراض دنيوية، والاتهام على الظن، هكذا هي الجاهلية التي جاء الإسلام لتقويض مبانيها اللاإنسانية وليعيد صياغة العقل البشري في تبني مثل عليا في مسعاه نحو المطلق.فالتوجه الجاهلي يقف على النقيض من التطور، وهو يحارب كل مجالات العقل في التدبر والتفكير من أجل الإنعتاق من عبودية الإنسان للإنسان، على العكس من الإسلام الذي يحقق مطلق الحرية باعتبارها مطلق العبودية لله، وقد نتج عن الثورة المعرفية التي تولدت عن العقل المسلم الذي نوره الإسلام، فاندفع بقوة نحو البحث والتأمل والتدبر فبرز بذلك علماء أجلاء غيروا مفاهيم العالم والعلماء، فكان جابر بن حيان الأزدي في القرن الأول للهجرة، الذي أبدع أسس البحث التجريبي خاصة في الكيمياء، وكان الكندي والفارابي وابن سيناء والرازي وابن الهيثم والخوارزمي وغيرهم الذين أسسوا قواعد انطلق منها الإنسان نحو تحقيق المراد الإلهي من خلقه، ليمارس الاستخلاف المبدع عن جدارة وإتقان عظيم يؤكد عظمة الله في خلقه، لا زالت ترتفع مباني العلوم البشرية وإبداعاتها على قواعدها.

يمكن اعتبار إشكالية التخلي عن العقل كأحد مصادر التشريع، واحدة من أكبر الإشكاليات العلمية التي روج لها السلفيون في زمننا المعاصر، ففي الوقت الذي يدعو فيه الإسلام إلى تبني الاجتهاد في التشريع المستنبط من النص المقدس لتنظيم العلاقات بين الإنسان وربه (العبادات)، والإنسان وغيره (المعاملات) مع إدراك الحكمة من خلق الإنسان ومهمات الاستخلاف، كان (السلفيون)الأشد إصرارا على نبذ العقل ورفض العمل بالاجتهاد، ويحكّمون التاريخ، ويصرون على تقديس اجتهادات السلف وما تم استنباطه من أحكام لحل مشاكل عصرهم المختلف تماما عن الوقت المعاصر، ليكتشف(السلفيون) أنفسهم وبعد قرون عديدة جسامة خطأ ترك الاجتهاد بعد التغيرات التاريخية والاجتماعية والسياسية التي أوجدتها الحاجة المستمرة إلى وجود موقف ديني من حركة الحياة. وحاول السلفيون الجدد الادعاء بأنهم إصلاحيون ومجتهدون؟؟، مع إصرار عجيب على التمسك بمقولات لم يقل بها أحد من العلماء قبل القرن السابع، وهو قرن من أشد القرون وطأة على العقل المسلم، في فترة تعتبر من أكثر الفترات التاريخية تخلفا وجاهلية وانهزامية في مجمل التاريخ الإسلامي. ولم يجدوا في تلك الفترة سوى ابن تيميه وتلاميذه مثل ابن القيم وابن كثير وغيرهم. وهم قلة ناقضت جل علماء عصرهم ومن سبقهم. ومنها تلبس السلفيون التجديد والإصلاح بثوب الجاهلية الواضحة. دون الانتباه إلى حقيقة أن السلفية مفهوم إشكالي بحد ذاته كونه لا يمتد بجذوره إلى السلف المقصود (صدر الإسلام وقرون الخيرية)، وأن أول ذكر لهذا المصطلح جاء مع كتابات ابن تيمية في منتصف القرن السابع الهجري، أي أنه لا ينتسب إلى أي حديث نبوي، ولم يذكره أي من أصحاب المذاهب المشهورة أو التابعين، لكن بعد ذكره العرضي في كتب ابن تيمية توالى ذكره عند كل من ابن كثير وابن القيم وغيرهم، وقد حدد هذا المفهوم في ما بعد بشيء من الذاتية إلى إدعاء صوابية النهج وعموميته، وفي مقابل التعدد والتوسع في مرادفات هذا المصطلح مثل أهل السنة، وأهل الجماعة، والفرقة الناجية، جرى التضييق على المحتوى حتى لا يشمل سوى مجموعة ضيقة ومحدودة (الوهابية، ثم المداخلة فقط منهم)، التي تبالغ بنفي الغير الذي لا يتفق معها، وتعتمد في مقاربتها الفكرية على طريقة تراجعية غاية في الجمود، يغيب فيها الفكر التوليدي الذي يتعامل مع المتغيرات. وهي كفكرة تعني اتباع رأي وموقف الأسلاف أو الأجيال السابقة وفقا لفهم شيخهم محمد بن عبد الوهاب النجدي وتلاميذه، وهم يشابهون من ذكرهم الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]. فهؤلاء اتبعوا سلفهم محدود الفكر والرؤية وحكّموا التاريخ، وأهملوا النص الإلهي في القرآن الكريم. والسلفيون بإتباعهم السلف وتعبدهم بالرجال ممن لم ينص عليهم القرآن،ينطبق عليهم النص القرآني تمامـــــا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١].

وقد كتب سلفي في أحد المواقع على الانترنيت (موقع أهل القرآن شريف هادي في السبت ٦ يناير ٢٠٠٧): (مالي والعقل فكل من يستخدمه زنديق، وجب عليه العذاب حقيق، وليس له منا صديق، بل نقتله تقربا ويقف على جيفته البوم نعيق، ونستحل منه الدم والمال والحلال والعقيق، فأول من استخدم العقل الشيطان - وقال لرب العرش الرحمن أنا أفضل من هذا الإنسان خلقته من صلصال كالفخار وخلقتني من نار فلن أسجد ولو أصابني العار وطردتني من رحمتك وعذبتني بالنار–). فإذا كان رأي السلفي أن العقل يؤدي إلى التهلكة،فكيف يمكن تفسير علة خلق الحق سبحانه للعقل، ولم أقسم الله به وجعله دليلا للهداية؟. وقد قال جل من قائل: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩]. والله عز وجل يمدح أصحاب العقول (الألباب) فيقول: ﴿ أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [الرعد: ١٩]. والآية الكريمة هنا تكشف من هو المعاند فتصفه بالأعمى، وهي صفة قد تنطبق على كل من تجاوز القيم والمفاهيم القرآنية، في حين أن الآيات التالية تستمر بمدح أصحاب الألباب وتفسر من هـم: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ۝٢١ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد:٢٠-٢٢]. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم يذكر عن رب العزة في حديث قدسي: **(لما خلق العقل قال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر فقال وعزتي ما خلقت خلقا أعجب إلي منك بك آخذ وبك أعطي وبك الثواب وعليك العقاب)** «رواه الطبراني في المعجم الأوسط عن الصحابي أبي أمامة ط»، وقد قال الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: **(إن تبارك وتعالى يحاسب الناس على قدر ما آتاهم من عقول في دار الدنيا)** «المجلسي في بحار الأنوار». من هنا نكتشف جهالة المنكر للعقل والمرتكز على أقاويل من لم ينزل من الله بهم سلطان ولا دليل، فالعلاقة بين إنكار ضرورة التعقل والجاهلية علاقة عضوية ، فكلاهما يتبنى قيما متخلفة ويتبع منهجا همجيا يناقض العقل والمنطق، كما يجافي الذوق السليم، فقد استغل السلفيون جمود العقل الأعرابي فأغرقوا في تجهيله، ثم نفى العقل عن التفكر والتصرف السليمين فأمعنوا في إيجاد الهوة بين أتباعهم والعقل، حتى بات الاعتماد على العقل شيئا يناقض القرآن في فكر السلفية، بل إنهم ادعوا عصيان إبليس لربه وغوايته كان بسبب استعمال العقل، ولم يقولوا بأنه استعمل القياس المضطرب كي لا يطعنوا في منهج سلفهم المعتمدين الذين اشتهروا باستعمال القياس، والعمل برأيهم حتى وإن ناقض نصوصا قرآنية جليّة، فالقياس في التفسير الفقهي يختلف اختلافا كبيرا عن استعمال العقل، ونجدهم دائما يتشبثون بما يعرف بالسلف والصحابة (وفق نظرية عدالة الصحابة كلهم بما فيهم من خالف وقتل وحرّف)

وإذا وجدوا أن هؤلاء سيقعون تحت سيف النقد والتجريح، تراهم يبادرون إلى سلسلة من الأحاديث حتى الأحادية منها والضعيفة بل والموضوعة، لتبرير سلفيتهم ثم يلجؤون إلى تفسير النص القرآني بما يناسب الأهواء ويدعم مكانة نظرياتهم مثل نظرية الخلافة وولي الأمر.

من جانب آخر، فالجاهلية لاتعني فقط التخلف عن الركب الحضاري المتمثل بالعقيدة الإسلامية الداعية إلى توكيد الحق، بل أيضا تعني الانحراف عن المسار الإلهي،فالإسلام الذي يحرم دم ومال وعرض الإنسان إلا بالحق، يفترض به الارتقاء بالعقل البشري ليسمو على الأهواء والأطماع، ليتأكد السبب الأساس وعلّة وجود الإنسان نفسه ليكون خليفة لله في أرضه ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ **[البقرة: ٣٠]**، هذا المخلوق المبدع العظيم دليل على عظمة خالقه، إنه الإنسان من بني آدم الذي خلقت له الدنيا ولم يخلق لها، وزوده الله بعقل يتمتع بإرادة حرة خلاقة قادرة على استعمال كل ما في الأرض لإعمارها واستعمارها، وأن الله سبحانه يفاخر بإبداعات أعظم مخلوقاته على الأرض كلما تقدم في ممارسة مهمته كخليفة لله في أرضه، المسلم الحق هو الذي يدرك أن واجبه الأول هو ممارسة مهام الاستخلاف، فما خلقه الله إلا ليكون خليفة، وأن سبب خلقه الأول والأهم هو ممارسة مهمة الاستخلاف بإعمار الأرض واستعمارها وتسخير كل ما فيها مجالا لإبداعه.

هذا الإسلام بكل عظمته لم يتمكن من تنقية عقول ونفوس الكثير ممن عاصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وتشرف بصحبته، ثم كشفت حركة التاريخ تمكن العادات الجاهلية من مسلكهم وتصرفاتهم المناقضة للإيمان الصادق، فإذا كان أولئك وفي عصر الرسالة وبين يديهم الآيات قد انغمسوا في قيعان جاهليتهم، فكيف بهؤلاء بعد أربعة عشر قرنا من هيمنة تاريخ منحرف ومزور؟!.

لقد برهن من يسمون أنفسهم بفقهاء الوهابية في الكثير من المواقف على جمود عقولهم وضيق أفكارهم، بل إنهم وفي سبيل تبرير مواطن ضعفهم، تجدهم يعمدون إلى تحريف التفسير، وليّ الأحاديث ليقدموا لاتباعهم شيئا يدعونه فقها تجاوزا على الفقه، ويسمونه علما والعلم منه بريء، بل ويصل الأمر بكبار علمائهم المعتبرين عندهم أن ينكروا كروية الأرض ودورانها، ويحكمون بالردة على من قال بذلك يستتاب أو يحد، أي يستحلون دمه وماله، فأي جاهلية أكثر وضوحا من هذه الجاهلية التي يقول بها أهم وأكبر شيخ من شيوخ الوهابية المعاصرين ورئيس هيئة كبار علمائهم. وبالمقابل نجد أن النبي □ يعلمنا عن ربه أن لانقبل قولا أو حديثا أو حكما دون أن يعرض على القرآن الكريم، فالسنة تحتكم للقرآن، وما خالف القرآن ليس بسنة

حتى وإن قيل لنا أنها صدرت عن المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم، إذ أن العقل يحكم أن لايصدر المعصوم حكما أو قولا يخالف النص القرآني، مع اعتبار خاصية يتمتع بها الرسول المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم، وهي أنه وحده دون سواه من أوحي له النص (الذكر الحكيم)، وفهمه (السنة فعلاً وقولا وإقرارا)، فنيّة المشرّع الضرورية لاستنباط الأحكام لا يمكن أن تكون في هذه الحالة إلا وحيا، لذلك كان الرسول يعلمنا النص القرآني (الكتاب)، وكيفية استنباط الأحكام للحكم بنصوصه (الحكمة)، ومن يدعي بعده أنه يدرك نيّة المشرّع لاستنباط الأحكام من النصوص، لا شك أنه خرج عن ثوابت الملّة، فنيّة المشرع لا تدرك إلا وحيا، وبقوله هذا يدعي أنه يوحى إليه، وهذه زندقة صريحة. ورحم الله ابن المقفع في قوله، **(الدين إيمان والرأي مخاصمة فمن جعل الدين رأيا فقد جعله خصومة، ومن جعل الرأي دينا فقد جعله شريعة** -أي جعل رأيه مقدسا وأنزله منزلة الوحي-**)** «الأدب الصغير لابن المقفع».

فالعقل الوهابي يتسم بتسليم مطلق للتاريخ بطريقة دوغمائية، رافضاً المناقشة أو النقد أو التقييم مما يجعله مليئاً بالأهواء المضللة، مهمّشاً للحجج والبراهين العقلية، محتدّاً في نقاشه، منفعل النبرة، وينعكس ذلك جفاء في التعامل مع المخالفين.

لقد تبين للكثير جاهلية الفكر الوهابي المتلبس بالسلفية، والأكثر جاهلية ما يدعيه المداخلة، واستحالة قدرتهم على حل مشاكل الناس المعاصرة، وحقيق بالعلماء أن يعيدوا تقييمهم باعتبار القائلين به دعاة فكرة جاهلية، ويجب قيام دعوة إسلامية للتخلص من هذا الفكر خاصة ومن دعاته والمروجين له، فهذا النوع من التفكير بات عبئا على أصول الرسالة المحمدية على صاحبها وآله الصلاة والتسليم، بل انه يقدم الإسلام بشكل سلبي، فقد عمدت الوهابية والمداخلة، على إفراغ الإسلام من المفاهيم الرسالية الأصيلة، وطرحت عوضا عنها مفاهيم مصطنعة تتفق وارتباط الفكر السلفي بالأنظمة الحاكمة، على غرار علماء العصرين الأموي والعباسي، وحتى في الدعاوى الفارغة مثل فكرة إعادة الخلافة على طريقة الخلافة العثمانية، فإن الغرض الأصيل من هذه الفكرة هو إيجاد أرضية بلباس شرعي، لتكون مبررا وقناعا للعمل ضد عقيدة الشورى الملزمة، فالصراع سابقا وحاليا يشكل صراعا عقائديا وإن تلبس بلباس سياسي، والوهابية وتشعباتها ترى أن حل الإشكاليات البشرية يكمن في الحل السياسي والتمكن من السلطة لفرض الرأي بالقوة والعنف، ونظرية الخلافة يمكن اعتبارها منهجا لتقويض الإسلام العقائدي،ليحل محله إسلاما يتبنى فكرا سياسيا قمعيا خارج القيم العقائدية.

ففي الوقت الذي تعتبر فيه العقيدة الإسلامية أن حل الإشكالات الإنسانية لايكمن في الجوانب السياسية والاقتصادية فقط، ترى كذلك أنه لا حل لتلك المشاكل إلا بالتشاور بين كل أفراد المجتمع المسلم، باعتبار أن هذه الجوانب تمثل جزءا من عناصر الحل الشامل (النسبي)، ولكنه يؤكد على أن القاعدة الأساس للحل هو الإسلام بمفهوم التسليم المؤمن عن معرفة وإدراك، والمعرفة تكمن في إدراك معنى الوجود، أي علاقة الإنسان بحركة التاريخ والغيب، من أجل تحقيق الاستخلاف لإعمار الأرض وتحقيق مقاصد الشرع الإلهي والقصد من خلق الإنسان نفسه، والتمازج بين عالم الغيب والشهادة، فيفصّل الحاضر المشهود على أساس الحركة نحو المستقبل (الغيبي)، وهذا المفهوم يؤطر لقيمة مجتمع الشورى باعتباره امتدادا للعصر الرسالي، وتحقيقا لعلاقة الإنسان بالله من خلال الاستخلاف الإلهي لبني آدم (الناس)، وهم جميعا يجب أن يكونوا أئمة وهم الوارثون بالوعد الإلهي المطلق، وليس الخلافة السياسية التي يدعو إليها المتأسلمون. فالخلافة التي يدعون إليها خلافة لا تحقق العلاقة بين الإنسان والاستخلاف، كما أنها لاتتبنى مفهوما واقعيا في علاقة الإنسان بحركة التاريخ، وقدرته على الإبداع والخلق والابتكار باعتباره خليفة للخالق المبدع،في تناقض واضح مع ضرورات الخلافة الإلهية (الشورى) التي تحقق القيم العليا لوجود الإنسان باعتباره صانعا للحضارة والخلق والإبداع، وعنصرا أساسيا في صناعة التاريخ والتطور. بذلك تصبح الخلافة كما حددها النص القرآني (وأمرهم شورى بينهم) مشروعا حضاريا يرتقي بالإنسان لتحقيق مثل عليا، في حين أن الخلافة السياسية تتبنى مثل منحطة تنحو نحو تحقيق مصالح دنيوية ضيقة وتشبع غرائز آنية.

السلفية من منظور معارضيها :

تناولت الصفحات السابقة السلفية من الناحية التأصيلية المجردة، أما إذا تابعنا الحراك السائد في العالم الإسلامي، نجد أن الموقف المعاصر من المنهج السلفي خاصة الوهابي في البلاد الإسلامية ينقسم إلى قسمين: (موقف عقلاني). (وموقف تغريبي). وأصحاب الموقف العقلاني في ذلك صنفان هما: (اتجاه عقلاني يرتكز على تراث الفرق المختلفة). (واتجاه عقلاني يدعو إلى التحديث في الفكر الإسلامي المعاصر). كما أن أصحاب الموقف التغريبي في ذلك صنفان أيضاً: (اتجاه تغريبي عالماني ليبرالي. واتجاه تغريبي عالماني ماركسي). ويلاحظ أن موقف الاتجاه العقلاني المرتكز على تراث الفرق المختلفة من المنهج السلفي يتمثل في ادعائه على أن «السلفية» مذهب جديد مبتدع في الدين، والتمذهب بها بدعة، فهي لا تعني إلا مرحلة زمنية وصفها الرسول بالخيرية، وأنه ليس في الإسلام طائفة متميزة تُسمى بالسلفية. وأن الالتزام في العصر الحاضر بالمنهج السلفي الذي سار عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين أمرٌ لا موجب له، لأن هذا المنهج إنما هو موقف اجتهادي منهم ولا يلزم غيرهم الأخذ به. وأن السلفيين يتنكرون للعقل ويغضون من شأنه وينحون به جانباً، ويحكمون بالضعف أو الوضع على كل ما ورد في فضل العقل من أحاديث.

أما موقف أصحاب اتجاه التحديث في الفكر الإسلامي المعاصر،يرون أن سنة رسول الله ، تنقسم إلى سنة تشريعية يلزم العمل بها، وسنة غير تشريعية لا يلزم العمل بها، وأنه يدخل في القسم الثاني مسائل باب (المعاملات) في الفقه الإسلامي، لأنه من أمور دنياهم التي هم أعلم بها. ويؤكدون على أن قضايا الاعتقاد مسائل فكرية، وأن الفكر يتغير بتغير الزمان والمكان، فالعقيدة إذن متجددة متغيرة وعلى المسلمين أن يختاروا ما يناسبهم من المناهج بحسب الظروف والملابسات التي يعيشونها. ولا بد لتجديد الإسلام وتحقيق النهضة المنشودة في وقتنا الحاضر أن نتجاوز منهج متأخري العلماء في الأخذ بالأسلم والأحوط والأضبط، فكلمة عقيدة لم ترد إلا بعد قرون الخيرية،لذلك الموقف الصحيح هو عدم المحافظة عليها بل بالانفلات منها والانطلاق بكل حرية في قراءة معاصرة تمكن من فهم النص على ضوء المستجدات. ويلاحظون أن الفقهاء السلفيون منغلقون ضيقو الأفق، وأن الحياة العامة وشؤون الاقتصاد والسياسة تدور من حولهم وهم لا يشعرون، وأنهم احتكروا الدين واتخذوه سراً من الأسرار حجبوه عن الناس، وأصبحوا بذلك وسطاء بين العباد وربهم، وسلطة مركزية تستبد بأمر الاجتهاد.وهذا لا يستوعب حقيقة أن الأحكام تتغير بتغير الزمان، وأنه لا يمكن تطبيق الشريعة على المستجدات والظروف والأحوال المختلفة المتباينة إلا بالتأسيس على وجوب معقولية الأحكام الشرعية، وذلك: باتخاذ تحقيق المصالح أساساً للتشريع، وبجعل دوران الحكم الشرعي مع الحكمة والمصلحة، وبربط الأحكام الشرعية بأسباب نزولها. كما أن «أهلية الاجتهاد» شيء نسبي إضافي، وجملة مرنة ليس لها ضوابط ولا شرائط، وأما تلك الشروط والضوابط التي اعتمدها فقهاء السلف فما هي إلا قيود وضعها مناطقة الإغريق ثم اقتبسها الفقهاء عنهم. وأنه ينبغي فتح باب الاجتهاد الحر لجمهور المسلمين بما فيهم العوام، لأنه ليس في الإسلام كنيسة أو سلطة رسمية تحتكر النظر في المسائل الشرعية والإفتاء فيها. خاصة وأن (الإجماع) حق لجميع أفراد الشعب المسلم،**(لا تجتمع الأمة على ضلالة)** ، وأنهم استعملوه في عصور الإسلام الأولى، ثم باشر هذا الحق نيابة عنهم الفقهاء في عصور عودة الجاهلية والانحطاط، وأنه لا بد في هذا العصر من إعادة الحق إلى الجمهور عن طريق التشاور في الأحكام الشرعية، فما رآه جمهور المسلمين وسوادهم الأعظم يصبح حكماً لازماً ينزل عليه كل المسلمين. وأنه لابد من التدرج في تطبيق الشريعة في المجتمع الإسلامي المعاصر، إذ لا يمكن تطبيقها تطبيقاً كاملاً في هذا المجتمع ولا سيما إقامة الحدود الشرعية، إلا بعد تهيئته من جميع النواحي: السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والفكرية. ولذا فإن الشريعة لم تطبق تطبيقاً كاملاً في أي مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي بما فيها المرحلة الأولى المعروفة بعصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، كما أن العقوبات المقررة في الشرع ليست مقصودة بأعيانها بل بغاياتها، وهي الردع عن ارتكاب الجريمة، فكل ما أدى مؤداها يكون بمثابتها

ولذا فإنه لا رجم في الإسلام ولا قطع ولا جلد ولا حد إلا بعد معاودة الجريمة وتكرارها والإصرار عليها. ويؤكدون كذلك أن الفقه السلفي الوهابي فقه تقليدي مؤسس على علم محدود بطبائع الأشياء وحقائق الكون وقوانين الاجتماع، وأن كتب الفقه عامة تفتقر إلى الأحكام التي ترشد المسلم إلى ما يجب عليه إتباعه في أمور التجارة والفن والسياسة،لأن أصول الفقه السلفي مطبوعة بأثر الظروف التاريخية التي نشأت فيها، فكان فقههم نظرٌ مجرد، كله مبالغة في التشعيب والتعقيد بغير طائل، ومقولات نظرية عقيمة لا تنتج فقهاً البتة، بل تُولِّد جدلاً لا ينتهى.

واشترك الاتجاهين العالمانيين الليبرالي والماركسي في موقفهما من المنهج السلفي في جوانب عديدة، أهمها: خلطهم في مفهوم «السلفية»، بحيث يُدخل هؤلاء تحته كل من انتمى إلى الإسلام، سواء كان انتماؤه صحيحاً أم خاطئاً. ومن ثم التعامل مع الاتجاه الإسلامي بطريقة قائمة على مواقف مسبقة، وليست علمية حيادية وإن ادَّعوا ذلك ، بحيث يتم تناوله بطريقة تحريفية تتعمد تشويه هذا الاتجاه والتنفير منه ووصمه بالتطرف والرجعية، والعقم والعجز عن الوعي بالعصر... الخ. واعتباره مشكلة كبيرة وخطراً داهماً يتهدد المجتمعات المدنية، وأنه يجب التصدي له بكل السبل، للقضاء عليه أو للحد من خطره وضرره على الأقل.

ويتمثل موقف الاتجاه الليبرالي من المنهج السلفي بوجه عام في ادعائه أن أصحاب المنهج السلفي يحصرون (العلم) في الشرع وينكرون ما عداه من العلوم، كما ينكرون السببية، وأنهم يرون اشتمال القرآن على كل علم، ويرون تضاداً وتعارضاً بين العلم الحديث ومتطلبات الإيمان وروحانية الإسلام، كما يرون هذا العلم علماً غير يقيني وعديم النفع غير مستحق للطلب والتحصيل، ولذا فهم يرفضونه ويدينونه. ويتهمون السلفيون بأنهم ينتقون في طريقة عرضهم للتراث الإسلامي ما يُناسب توجهاتهم وأفكارهم، ويحجبون كل ما يتعارض معها، ويقدمون ذلك بوصفهم الممثل لهذا التراث. وأنهم يُركزون في منهجهم في الأخذ بالإسلام وتمثله وتطبيقه على منطوق النص لا روحه، وعلى الشكليات والقشور دون الجوهر واللباب، فيركزون على الزي ومنع الاختلاط وتطبيق الحدود وأداء الشعائر، ويُغفلون التفكير في إيجاد حل للمشكلات السياسية والاقتصادية التي تعاني منها مجتمعاتهم. ويرى الليبراليون أن الاقتداء بالسلف الصالح والالتزام بمنهجهم، مناف للأصالة واغتراب زماني وقفز فوق العصر، لانقطاع الخيط الذي يصلنا بزمن السلف الصالح، ولأن منهجهم لم يُطبق إلا في فترة زمنية محدودة هي فترة صدر الإسلام. لذلك فالمنهج السلفي يصر على الثبات المناقض للتطور ومن ذلك يكون التمسك به وتطبيقه في حياة المسلمين المعاصرة يؤدي إلى الجمود والتحجر، ذلك أن من مقررات السلف التشبث بمبادئ الإسلام ونصوصه وشريعته، وهذه الشريعة ثابتة، بينما الحياة البشرية متغيرة متطورة، فإذا أُريد تطبيق الشريعة على الحياة، فإما أن تتغير الشريعة تبعاً لتغير مجال تطبيقها، فينتقض الحكم بثباتها، وتكون متطورة مسايرة للزمن في تحولاته

وهذا ما يرفضه السلفيون، وإما أن تجمد الحياة عند صورة واحدة وتُرفض صورها المستجدة التي حدثت بعد اكتمال نزول التشريع. ويصر الليبراليون على أن الإسلام دين وعقيدة وليس حكماً وسيفاً، وأن هناك فرقاً كبيراً بين الإسلام الدين والإسلام الدولة، وأن انتقاد الثاني لا يعني الكفر بالأول ولا الخروج عليه، وأنه لا ضرر في فصل الدين عن الدولة في الإسلام، بل فيه تحقيق لصالح الدين وصالح السياسة معا. ويصلون إلى نتيجة مفادها أنه لا يمكن تطبيق الشريعة الإسلامية في البلاد الإسلامية في الوقت الحاضر: لأن تطبيقها يؤدي إلى قيام دولة دينية، وهذه تقود إلى الحكم بالحق الإلهي الذي لا يتم إلا من خلال رجال الدين لافتقاد البرامج العملية اللازمة لتحكيمها، ولأن تطبيقها يهدد أمن الوطن ووحدته بإثارة الفتنة الطائفية.

أما موقف الاتجاه الماركسي من المنهج السلفي يتمثل في ادعائه أن المنهج السلفي منهج رجعي ماضوي، يقدس الماضي ويحن إليه، ويجعله مقياساً للحاضر، ويقتضي الانطلاق منه وحده، بل البقاء فيه وحده، لعدم قابليته التحرك خطوة واحدة إلى الحاضر، ولذا فالالتزام بهذا المنهج يؤدي إلى العقم والجمود والتأخر والتخلف الحضاري، والعجز عن مواكبة التغيرات وتقديم حلول ناجعة للمشكلات الآنية. ويرون أن المنهج السلفي منهج أسطوري لا تاريخي، متعال عن الواقع، عاجز عن إدراكه، مغرق في التجريد والمثالية. وتتسم السلفية من منظورهم بالجور في نظرتها للتراث العربي الإسلامي وتعاملها معه، فهي تسعى إلى إلغاء حركة التاريخ بفرض نسق تاريخي معين على التاريخ كله، وتقوم بإغفال أو تهميش قسم كبير من هذا التراث مما لا يوافق توجهها. ويلاحظون أن الخطاب السلفي خطاب غال ينعت (السلف) بأنه (سلف صالح) من دون تمييز بين من كان منهم صالحاً ومن كان طالحاً، ويرفع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى مرتبة الإلوهية، والصحابة رضي الله عنهم إلى منزلة الأنبياء، وكلهم كانوا بشراً يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق. وينتقد التغريبيون الماركسيون الإسلام ذاته في تشريعاته الاقتصادية كتحريم الربا والاحتكار وفرض الزكاة باعتبار أن الإسلام وفقا لرؤيتهم يُقرّ التمايز الطبقي، ولا يحل مشكلة الفقر، كما لا يحقق العدالة للفقراء وينصفهم من قوى الاضطهاد الاجتماعي، بل يحيل ذلك إلى يوم القيامة. ويرون أن دوافع حركة الفتح الإسلامي كانت مادية أكثر منها دينية، وأن التسامح الديني الذي اتبعه الفاتحون كانت له قاعدة مادية، وهي محاولة التقليل من عدد المسيحيين الذي يدخلون في الإسلام، لكي لا تقل موارد ضريبة (الجزية) التي فُرضت على غير المسلمين.

ويرى السلفيون المغالون أن هذه أفكار كافرة يروجها جهلة بالدين، من غير المستحب الرد عليهم بحجة وأعرض عن الجاهلين، أما الإصلاحيون منهم يرون في ردهم على مخالفيهم،بأن كل ما أُقر عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قول أو فعل أو تقرير قبل وفاته ثم لم يُنسخ هو شرع ودين يُتَعبَّد الله به، ولكن هذا الدين والتشريع يختلف حكمه، فإما أن يكون فرضَ عين، أو فرضَ كفاية، أو واجباً، أو سنّة مؤكدة، أو مندوباً، أو مباحاً.

وكل من عمل شيئاً من ذلك بنية التقرب إلى الله عز وجل يثاب على فعله. وأن علماء المسلمين منذ زمن السلف الصالح كانوا يؤثرون الأخذ بالأسلم والأحوط والأضبط، والتزام الرفق في الأمور كلها. ويؤكدون على وجود فرق واضح بين مصطلحي (تغير الفتوى) و(وتغير الأحكام)، فإن تغير الأحكام عندهم نسخ، وهذا قد انقطع بانقطاع الوحي، أما تغير الفتوى فهو: انتقال المجتهد من حكم إلى حكم آخر لتغير صورة المسألة، أو ضعف مدرك الحكم الأول أو زواله أو ظهور مصلحة شرعية، أو سداً لذريعة فساد، أو رفع حرج، مستصحباً في ذلك الأصول الشرعية والعلل المرعية والمصالح الموافقة لمراد الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم. **لذلك** لا يجوز عندهم قصر الأحكام الشرعية على حوادث نزولها المتعيِّنة، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولأن قصر الأحكام الشرعية على أسباب نزولها إجراء عقلاني تعسفي ليس للداعين إليه دليل ومستند شرعي، ولأن من لوازمه إبطال حكم النصوص الشرعية وفتح الباب واسعاً للأهواء والشهوات في تحديد ما يؤخذ وما يُرد من أحكام الشرع. **ويرون** أن الشريعة الإسلامية طبقت تطبيقاً كاملاً في تاريخ الإسلام، ولا سيما في صدره الأول، وأنه يجب على المجتمع الإسلامي أن يطبق شرع الله في كل مناحي الحياة تطبيقاً كاملاً في حال القدرة على ذلك. **ويرون كذلك** أن العقوبات المقررة في الشرع مقصودة بأعيانها وغاياتها معاً، وليس كل ما أدَّى مُؤداها يكون بمثابتها. **ومن ذلك يؤكدون على** إجماع علماء السلف على رجم الزاني المحصن. **ويصرون على** اشتمال كتب الفقه الإسلامي على الأحكام التي تُرشد المسلم إلى ما يجب عليه إتباعه في أمور التجارة والسياسة وغيرهما من المجالات. **ومن ذلك يكون مفهوم** العلم عند السلف ، على الرغم من أنه ينصرف عند إطلاق لفظه إلى العلم الشرعي ، يتسع ليشمل جميع أنواع المعارف الإنسانية، كالرياضيات والطب والكيمياء والفيزياء والفلك والمنطق واللغة والأدب وغيرها، وأنهم لا يرفضون العلم الحديث، بل ينظرون إلى العلوم الكسبية نظرة معيارية أخلاقية، ومن ثم يقسمونها إلى قسمين: علم محمود، وعلم مذموم. فالمحمود: هو المنضبط بهدي الوحي الإلهي نهجاً وغاية، المحقق للمصالح المعتبرة شرعاً، الدافع للضرر عن الناس. والمذموم: هو الذي لا يحقق مصلحة معتبرة أو مباحة شرعاً، بل يقوم على الضرر والأذى وجلب الشرور والمفاسد. **كما** أن الانتقاء في المنهج السلفي ليس انتقاءً تحكمياً، يمارسه المنتقي من أجل إثبات وجهة نظر يعتمدها أو يبرر به رغبة ذاتية لديه، فيأخذ من التراث ما يوافق هذه الرغبة ويهمل ما سواه، بل هو انتقاء قائم على دراسة التراث في تاريخيته ثم نقده وتصفيته، اعتماداً على الوحي الإلهي بمقرراته وأحكامه التي يرونها حاملة لأعلى درجات الحق والموضوعية والصدق. **ويركز السلفيون الإصلاحيون** في نهجهم في الأخذ بالإسلام وتمثله وتطبيقه كما يدعون، على منطوق النص وروحه معاً، وعلى المظاهر والجواهر معاً. **ويصرون على** أن الاقتداء بالسلف والالتزام بمنهجهم في فهم الإسلام وتمثله والعمل به نصاً وروحاً هو عين الأصالة التي يشرف بها كل مسلم، وأن المنهج السلفي عندهم هو منهج الإسلام نفسه، قائم ومطبق ومتصل منذ فجر تاريخ الإسلام وحتى يومنا هذا.

وثبات المنهج السلفي يعني الثبات على أمرين رئيسين هما: (حقائق الإسلام الخبرية وأصوله الإيمانية**)**. و(أحكامه التشريعية)، وأن ثباته على هذين الأمرين لا يعني تثبيت الحياة الملتزمة به في صورة واحدة لا تتغير، **لذلك** فالدين كما يراه السلفيون الإصلاحيون، هو النظام العام والقانون الشامل لأمور الحياة كلها ومناهج السلوك للإنسان التي أوحى بها الله عز وجل إلى نبيه محمد ، وأمره بتبليغها إلى الناس كافة، مع ما يترتب على التقيد بها أو عدمه من ثواب وعقاب. وأن الدين مرتبط بالدولة في الإسلام ارتباط القاعدة بالبناء، فالدين أساس الدولة وموجهها، فلا يمكن تصور دوله إسلامية بلا دين، كما لا يمكن تصور الدين الإسلامي فارغاً من توجيه المجتمع وسياسة الدولة، لأنه حينئذ لا يكون إسلاماً، وأن الحكومة الدينية بصورتها الكهنوتية الكنسية لا وجود لها في الإسلام على الإطلاق، لأن الله عز وجل سَوَّى بين الناس جميعاً من ناحية الحقوق والواجبات، ولم يجعل للتفاضل ميزاناً إلا تقواه سبحانه. ويؤكدون على أن «السلفية» نفي للمحاذير التي ارتبطت بوصف الماضوية، نتيجة ما حدث لحركة الارتداد الفكري نحو اليونان في أوائل عصر النهضة، وهي في حقيقتها دعوة إلى الماضي وتَطلّع إلى المستقبل في آن واحد، وعلماء السلف الإصلاحيون وإن كانوا يصرحون بتشددهم في التمسك بثوابت الإسلام، فهم في الوقت نفسه يحملون راية الانفتاح الحضاري، ويشجعون على الانتفاع بالعلوم الطبيعية والرياضية، بغض النظر عن عقائد أصحابها أو توجهاتهم الفكرية. **و**التقدم في الإسلام إنما هو تقدم أخلاقي، ومضيٌ في تحقيق الرسالة التي أناطها الله بهذه الأمة، مع الأخذ بأسباب العمران المادي في نواحي الحياة كلها. **و**أن المنهج السلفي يقف في تعامله مع الواقع موقفاً إيجابياً، ليس في مجالات العقيدة والعبادة فحسب، بل وفي المجال الاجتماعي سياسياً واقتصادياً ونحوه. وأن هناك فارقاً أساسياً كبيراً بين صلة المنهج الإسلامي بالواقع، ونظرة الاتجاهات المادية له، فنظرة هذه الاتجاهات تجعل الواقع هو الأساس الذي تتشكل منه الثقافة بتصوراتها وقيمها وأحكامها، وأما في الإسلام فإن الواقع مجالُ تَنزّل أحكام التشريع الإسلامي، لتبقى تغيراته محققة لمصلحة الإنسان والمجتمع. ويؤكد السلفيون الإصلاحيون على أن الموقف الحقيقي للسلف من التراث يتمثل في العناصر ذات الصبغة المنهجية التي ترى الانفتاح المنضبط على التراث بضوابط السلفية بوصفها مرجعية معيارية. وأن يكون الانفتاح شموليا تاريخيا يخضع للانتقاء الموضوعي. ويجادلون بإصرار على أن تشريعات الإسلام الاقتصادية تسعى إلى القضاء على التمايز الطبقي بين الناس، وإلى تحقيق العدالة بينهم، ومعالجة مشكلة الفقر والفاقة بصورة فريدة تعجز عن مضاهاتها فيها جميع الأنظمة والنظريات الاقتصادية الوضعية، رأسمالية كانت أم اشتراكية شيوعية.

المسلمون التنويريون بين الأصالة والتجديد:

مقدمة : من المهم تحديد مفاهيم المصطلحات، وتبيين الدلالات، قبل الخوض في هذا الموضوع الشائك، لاختلاف معانيها عن فهم كثير من الخائضين فيه، وعدم قدرتهم على التفريق بين الثوابت والمتغيرات، بين المحكم والمتشابه، بين القطعي والظني، بين المطلق والمقيد من أصول وفروع ومقاصد وأحكام. بل البعض لا يفرق بين الدين والشريعة، وبين الشريعة والفقه، ففي كثير من الأحيان يوضع الدين موضع الشريعة، والشريعة موضع الفقه، لينشأ عن ذلك الانحراف في الفكر والمفاهيم، الذي لا ينتج عنه سوى تعميق الاختلاف بين الاجتهادات والمراجعات، قد يتطور هذا الخلاف إلى خروج عن ثوابت الدين وأصوله، كما حدث في شرائع رسالات إلهية سبقت بعثة محمد صلى عليه وآله وسلم .

ومن أخطر الأخطاء الشائعة، اعتبار الإسلام دين آخر أتى به محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعد اليهودية والمسيحية، لذلك وفي مواضع كثيرة ترد جمل مثل (قبل الإسلام وبعده) في أبحاثهم، لعدم قدرتهم على التمييز بين الدين والشريعة، بالرغم من بيان ذلك في آيات الذكر الحكيم الذي يؤكد التزام كل من سبق بدين الإسلام ، ويقر بأن ﴿ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وحيث أن الله قديم غير حادث، نستنتج، أن الدين الإسلامي سبق خلق آدم نفسه، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. (ومن يأتي) هنا كل الخلق من آدم عليه لسلام إلي آخر مولود من ذريته. ويتضح لنا المفهوم الكامل للدين، كونه التصديق بثوابت تتعلق بالوجود ومن أوجده، وما سيؤول إليه، ليكون بذلك استيعاب لمعرفة منقولة، بأدلة يقبلها العقل ويشهد بصحتها، ويسلم بما ينتج عنها، فلن يكون اليهودي أو المسيحي على شيء، إلا إذا سلم بحقائقها، وكان من المسلمين كما كان موسى وعيسى عليهما السلام والمصدقين برسالتيهما، ولن يجدوا تناقضا بين ما هم عليه وما أتى به محمد صلى الله عليه وآله وسلم مصدقا لما بين أيديهم، فالدّين لا يخضع للزمن، ولا يتغير بأحداثه، إنه حقيقة ثابتة تخبر عما حدث وما يحدث وما سيحدث.

أما الشريعة تختلف عن ذلك، بمقتضيات اختلاف العصر والظروف، مقاصدها تحقيق المصالح البشرية المرسلة، وجُعل لكل رسالة شرعة ومنهاجا، تواكب التطور البشرى المعلوم عند الخالق، إلى أن تهيأت الظروف للرسالة الخاتمة بشريعة تعهّد الله بحفظ نصوصها من كل تحريف أو تزوير، بعد أن أصبح العقل البشرى بتراكم خبراته أقرب إلى ما كان عليه أصلا عندما خلق في أحسن تقويم، يملك القدرة على التعلم والحفظ والمراجعة والاستنباط والتوظيف، وجعل في قواعد أحكامها الفطرية ما يسمح بتطورها لتحقيق مقاصدها، حسب حاجة تطورات العصور بعدها، وهى الحاكمة على أفعال وتصرفات جميع المكلفين في كل نواحي الحياة

وحيث أنها نصوص إلهية، تتفاوت درجة فهم المعنيين بها، عدا الرسول الخاتم، الذي أوحى له صلى الله عليه وآله وسلم النص (القرآن) وفهمه (السنة)، وهي خاصية اختصه الخالق بها، لم ولن تكون لأحد بعده مهما بلغ علمه، وعصر تواجده، ودرجة التزامه، والمقياس الوحيد بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لسلامة الأحكام المستنبطة من النصوص، هو إجماع «أهل التكليف بالتزام الحكم المستنبط» على صحته، بأدلة الشريعة، بعد تبيين أهل العلم والمعرفة، وفقا لمعايير وأصول، أهمها، تطبيقات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نفسه لها في عصره (السنة العملية)، ومعاني الألفاظ ومدلولاتها في لغة اختارها الله وعاء لنصوص أحكام شريعته، هذا الاستنباط يسمّى في الثقافة الإسلامية (الفقه)، باعتباره العلم بالأدلة الشرعية المستنبطة من القرآن والسنّة، لإنتاج أحكام تحكم سلوك الفرد والأمة، وتنظم العلاقة بين أفراد المجتمع المسلم وبينه وبين المجتمعات الأخرى، بقصد تحقيق مصلحة العباد في المعاش والمعاد، الحاضرة والمستقبلية، الدنيوية والأخروية، الشخصية والعامة، في إطار من الثوابت، ومجال من المتغيرات تواكب تطورات الزمن المتغير، بفعل التطور البشرى الملتزم بنصوص محكمة تحكم المتشابه من النص القرآني.

فالشريعة دستور ثابت النص، تستمد ثباتها من الخالق مبدعها والملمّ وحده بمجمل معانيها، وهو لم يفرط فيها من شيء فيما مضى أو ما سيأتي، ولم يخالف نص من نصوصها حقيقة علمية سابقة والمؤكد أنه لن يخالف حقيقة تثبتها اكتشافات علمية لاحقة.

أما الفقه فهو مجال من مجالات الحكمة التي تعلمها الفقهاء من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لاستنباط الأحكام من نصوص الشريعة، وفق فهم بشري، تتحقق مقاصدها في تحقيق مصالح العباد المرسلة، حسب اجتهادات مرتبطة بحياة بشرية متجددة، لا بد من تجديد أحكامها وضبطها المستمر بثوابت الشريعة.

إنه وبمنتهى البساطة، الشريعة **(دستور)**، والفقه **(قوانين)** تخضع لقواعدها وتنتج عن حوار حر وتشاور بين أهل العلم والمعرفة الذين تفرغوا للتفقه، واختصوا دون غيرهم بمثل هذه العلوم المحددة، دون تزكية أو تقديس لسلف أو خلف، وهذا ما كان عليه أئمة الفقه من المشهود لهم بالصلاح والمعرفة، **(كلّ يؤخذ من كلامه ويترك إلا صاحب هذا القبر)** يقصد الرسول ﷺ، الإمام مالك. **(رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب)** الإمام الشافعي. والإمام أحمد تروى عنه في المسألة الواحدة أكثر من عشرة روايات مختلفة (اختلاف عصر وزمان وليس اختلاف حجة وبرهان). والشافعي له مذهبان قديم وجديد، نتجا عن اختلاف المكان والزمان، وتطوره الفكري والمعرفي. كان هذا في عصر بطيء التغيّر، فما بالك بعصرنا الذي يشهد تطورا مخيفا في كل شيء ويفرض تجديدا دائما للقوانين والأحكام. والعودة الدائمة والمتفحصة للأصول التي سادت عصر الرسول والصحابة، يوم كان الاجتهاد مفتوحا لكل من هو أهل له

وكانت الأمة بمجملها، أمة مجتهدة، تتميز بكونها أمة رأى وشورى، الجماعة فيها هي أساس الحكم، يمارسه كل أفرادها بوعي ومسئولية، يفهمون القرآن ويعيشونه، ويعرفون السنة ويطبقونها، ويجيدون فهم أدق تفاصيل لغتهم ومفرداتها، مبنى ومعنى، وفي نفس الوقت كانت مؤسسة الحكم قبل أن تفقد رشدها، تقود أمة تلتزم بما أجمعت عليه، وتعالج ما كان محل اختلاف، تفرق بين النصوص القطعية التي لا اجتهاد فيها، وتجتهد في كل ما هو ظني، وتلتزم بضوابط الإدارة الجماعية، شعورا وسلوكا، تبنى عليهما حضارتها، وتساهم في تطور عصرها، ماديا ومعنويا، وتحقق سعادة أبنائها بل وكل المجتمع البشرى.

فهل يتفق ذلك مع ما نشهده الآن من عبط فقهي، لا يخرج عن دائرة الحيض والنفاس، وهو في أعلى درجاته، يجتر استنباطات السلف الذي اجتهد لعصره ومشاكله، دون تمحيص لما تعرض له المجتهد السلفي، من ضغوط السلطة، أسكتته عن الكثير مما يجب أن يقال، بل أجبرته في مواقف عدة على إلزام الأمة بطاعة السلطان الجائر، إنه التمسّك الرجعي بأقوال القدماء من السلف، التي لا شك أنها كانت صالحة لعصرهم أحيانا، وقد لا تكون صالحة لعصرنا بحكم التطور والتجدد، والشريعة بوضعها الإلهي صالحة لكل زمان ومكان، كدستور وقواعد، أما شدة الإعجاب المَرَضي بما توصل إليه اجتهاد القدماء، ومحاولة فرضه على أحياء عصرنا، دون اعتبار للمتغيرات والتراكمات المعرفية، لا يكون إلا السفه عينه، بل تجد من يتحدث عن قفل باب الاجتهاد، فمن يملك غلق باب فتحه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والتزم به صحابته رضوان الله عليهم؟؟؟!!.

تأملات في حقيقة الإنسان الحياة الموت:

أولا: النفس بين الروح الجسد ؟؟؟:

المتأمل فيما بيّنه الذكر الحكيم من حقائق خلق الإنسان، يعلم بما علّمه الله أن الإنسان خلق جسدا من التراب (طين ثم حمأ ثم صلصال وفخار ثم ماء مهين...)، ﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ [السجدة: ٧-٩]، ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ﴾ [الرحمن: ١٤]، فشكل تشكيلا جماليا بقدرة الله المبدع على غير مثال، ثم نفخ فيه الباري من روحه العليّة، ﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٨]، فكانت (النفس) الناتجة عن اتحاد الروح المنتمية لسمو العالم العلوي، بالجسد المخلوق من طين العالم السفلي، ولا تستمر النفس البشرية في (تنفّسها) المشتق اسمها منه إلا باستمرار التحام الروح بالجسد، فإذا ما غادرت الروح جسدها بالموت، أصبحت النفس جثة هامدة لا تنفس ولا حياة ولا إرادة ولا عمل.

من هذا نعلم أن النفس هي المسئولة عن كل القرارات، لذلك تكون مراتبها حسب حالتها، فهي كما وصفها خالقها إما أمارة بالسوء، ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [يوسف:٥٣]، وإما لوامة، ﴿ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة:٢]، وإما راضية مطمئنة، ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر:٢٧-٣٠]، وتتغير أحوال النفس حسب استجابتها لأحد عنصري تكوينها، فإذا رضخت إرادتها لمكونها الجسدي تكون هوائية تسعى لإشباع الشهوات الجسدية الحسية فتكون أمارة بالسوء، وإذا ما تعادلت القوة بين العنصرين تستجيب لأمر السوء بشهوات الجسد، سرعان ما ترضخ لعوامل العتاب واللوم المنبعثة من تجليات الروح، فتكون النفس اللوامة، أما إذا ما قاومت شهواتها ونبذت أهواءها ورضخت لتجليات سمو الروح فيها، تكون نفسا نورانية راضية مطمئنة، وعند انقضاء الفترة العمرية المحددة بالموت، تخرج الروح وتغادر جسدها.

فإذا ما كانت أمارة بالسوء، مثقلة بالمعاصي، راضخة لشهوات الجسد، قامعة لملامات الروح غير مستجيبة لسموها علما وعملا، تخرج الروح مشمئزة من سجنها التي كانت مجبرة على التواجد فيه، مبتعدة عنه قدر ما تستطيع فارة منه إلى ملكوت ربها. أما إذا ما كانت راضية مطمئنة، فتخرج استجابة لأمر الخالق الذي حدد لها الأجل

ولكنها تبقى قريبة من جسدها المتوافقة معه، فالصالحين من عباد الله يكونون أرواحا في حياتهم يشعون بأنوار الروح المتجلية على سيماهم، فلا تأمر أنفسهم إلا بكل ما هو ساميا راقيا ملتزما بمقاصد الخالق، مجسدة لعظمته علما وعملا وتصرفا. وهذا هو الإنسان كما أراد له الله الذي خلقه في أحسن تقويم، وارتد هو بالاستجابة لسطوة شهوات الجسد إلى أسفل سافلين جهلا وجاهلية لا يستثنى من هذا الانحدار إلا من كانت تصرفاته تبعا لسمو أخلاق روحه الملتزمة بقيم أحسن التقويم، ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ ﴾ [التين:٤-٦].

ثانيا : القتال مقيد في الإسلام بشروط. فما هي؟:

يقول عز من قائل بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝١٩٠ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩١ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٩٢ ﴾ [البقرة:١٩٠-١٩٢]، سياق الآيات الشريفة يدل على أنها نازلة دفعة واحدة، وقد سيق الكلام فيها لبيان غرض واحد وهو تشريع القتال لأول مرة مع مشركي مكة، فإن فيها تعرضا لإخراجهم من حيث أخرجوا المؤمنين، و للفتنة، و للقصاص، والنهي عن مقاتلتهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوا عنده، و كل ذلك أمور مربوطة بمشركي مكة، على أنه تعالى قيد القتال بالقتال في قوله: وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم، و ليس معناه الاشتراط أي قاتلوهم إن قاتلوكم وهو ظاهر، ولا قيدا احترازيا، و المعنى قاتلوا الرجال دون النساء والولدان الذين لا يقاتلونكم كما ذكره بعضهم، إذ لا معنى لقتال من لا يقدر على القتال حتى ينهى عن مقاتلته، ويقال: لا تقاتله بل إنما الصحيح النهي عن قتله دون قتاله. بل الظاهر أن الفعل أعني يقاتلونكم، للحال والوصف للإشارة، و المراد به الذين حالهم حال القتال مع المؤمنين وهم مشركوا مكة. فمساق هذه الآيات مساق قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ [الحج:٣٩-٤٠]، فهذا إذن ابتدائي للقتال مع المشركين المقاتلين من غير شرط.

ويقول في مستهل سورة التوبة: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [براءة: ١-١٦]، ويقول جل من قائل: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأنفال:٣٠-٤٠]، ويقول في آيات بينات: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ ﴾ [النساء:٨٨-٩١]. الآيات متصلة بما قبلها من حيث تتعرض جميعا لما يرتبط بأمر القتال مع طائفة من المشركين والمنافقين، و يظهر من التدبر فيها أنها نزلت في قوم من المشركين أظهروا الإيمان للمؤمنين ثم عادوا إلى مقرهم وشاركوا المشركين في شركهم وتعرضهم للمسلمين فوقع الريب في قتالهم، واختلفت أنظار المسلمين في أمرهم، فمن قائل يرى قتالهم، وآخر يمنع منه ويشفع لهم لتظاهرهم بالإيمان، والله سبحانه يكتب عليهم إما المهاجرة (الموالاة البينة للمسلمين وأهله، وعدم الإعتداء عليهم أو المساعدة في ذلك) أو القتال ويحذر المؤمنين الشفاعة في حقهم. ويلحق بهم قوم آخرون ثم آخرون يكتب عليهم إما إلقاء السلم أو القتال. والمتأمل في قوله جل وعلا: ﴿ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾، يدرك أن الهدي القرآني غاية في الوضوح، وكل الظروف التي تكلم الحق عنها سبحانه وتعالى فيما يتعلق بمشروعية القتال فقط ليحمل المؤمنون المنهج إلى الناس، ويكون الناس بعد سماعهم المنهج أحراراً فيما يختارون.

إذن فالقتال لم يشرع لفرض منهج، إنما شُرع ليفرض حرية اختيار المنهج، بدليل قول الحق: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [البقرة:٢٥٦]. (ولا هنا هي واضحة الدلالة، فهي نافية، تنفي إيمان المكره، فالمكره على دين ليس من أهله)، ويتوعد الله من يقتل بغير ذلك الحق الدفاعي المشروع خاصة أخاه المسلم وإن خالفه الرأي فيما يجوز فيه الخلاف، بالخلود في جهنم. ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء:٩٣]. ويقول جل من قائل: ﴿ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ﴾ [الإسراء:٣٢]، فأجاز القتل مقيدا بالقصاص (قتل نفسا) أو (فساد في الأرض)، وعلى ذلك فالإسلام لا يفرض الدين، أو الرأي ولكنه جاء ليفرض حرية الاختيار في الدين والرأي، فالقُوى التي تعوق اختيار الفرد لدينه، يقف الإسلام أمامها لترفع تسلطها عن الذين تبسط سلطانها عليهم، ثم يترك الناس أحراراً يعتنقون ما يشاءون، بدليل أن البلاد التي فتحها الإسلام بالسيف، ظل فيها بعض القوم على دياناتهم. فلو أن القتال شُرع لفرض دين أو رأي لما وجدنا في بلد مفتوح بالسيف واحداً على غير دين الإسلام. وبعد أن تكلم الحق عن القتال في مواقع متعددة من سورة النساء، قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴾ [النساء: ٨٤]، الواضح هنا أن القتال مشروط بأن يكفّ الله عنك بأس عدوك، هذا هو هدي القرآن الذي التزم به خير الخلق صلى الله عليه وآله وسلم، الذي وجب على كل مسلم الإقتداء به وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به**». صححه وحسنه النووي في أربعينه عن عبد الله بن عمرو، وجاء في كتب السيرة أن رسول الله قال يوم فتح مكة مخاطبا قريش بعد أن تمكن منهم: «**يا معشرَ قريش ما ترَونَ أني فاعلٌ بكم ؟**» قالوا : خيرًا ، أخٌ كريمٌ ، وابنُ أخ كريم ، فقال : «**اذهبوا فأنتم الطلقاءُ**»، إذهبوا فأنتم الطلقاء، لم يجبرهم على شيء ولم يفرض عليهم الإسلام بل أطلقهم أحرارا يختارون ما يريدون، وكثير منهم أسلم بعد ذلك بشهور، ومنهم من لم يسلم، لذلك كان المسلمون يومها على قلب رجل واحد، وأخطر الأسباب التي تدفع نحو الفرقة والاختلاف المنبوذ في أيامنا هذه، هو أن كل واحد له هوى مختلف ولا يجمع الناس هدي الدين والاعتصام بحبل الله المتين. فكل هؤلاء الذين يفتون بالإقصاء والازدراء ويبيحون القتل دون ضوابط، ألا يتقون الله ويعودون لكتابه المحكم؟!، وهدي من تركنا على المحاجة البيضاء ليلها كنهارها لا يحيد عنها إلا هالك ؟!!. نسأل الله لهم ولنا العفو والعافية.

الإسلام محكم يتقدم على الزمان والمكان والحال

أ-مصطلحات البحث اللغوية:

في هذا التمهيد أريد أن أضع بين يدي القارئ: مصطلحين شرعيين هما: (العلماء والفقهاء)

* فعندما يقال (الفقهاء) يقصد به علماء الشرع الذين يرجع أصل معارفهم وتفكيرهم إلى تحليل واستنباط معاني النصوص الشرعية، وربط وضبط المواقف أو الحالات أو الأعمال بالأدلة الشرعية النقلية أو العقلية. وهو مصطلح مشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢] والفن هو الفقه. والمتخصص في الفن هو الفقيه .

* وعندما يقال (العلماء) يقصد به علماء علوم التجربة والكشف عن خصائص المادة، وكيفية التكوين والتركيب لهذا الكون المادي، وبكل ما فيه من الكائنات الحية والجامدة. ويرجع أصل معارف العلماء إلى التأمل في كتاب الله المنظور وهو الكون بكل مكوناته وكائناته، وبحث التراكيب والتكوين والتنظيم والفوائد المترتبة عنها. وكيفية تسخير هذه الكائنات للإنسان.

والى هذا المصطلح يشير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر:٢٧- ٢٨]. حتى وان كان العلماء بالعلوم التجريبية يستنبطون علومهم من البحث والتجربة بالدرجة الأولى، ولكن يستدلون في معارفهم بالتوجيهات وبالإرشادات القرآنية والسنة مثل الفقهاء. والعلم يطلق على الفقه من باب اللغة، لا من باب الاصطلاح ، كما في قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧] ، وكثير من الناس لا يفرقون بين المعنيين : اللغوي والشرعي (الاصطلاحي) . فالكشوفات العلمية آيات كونية. لأن لله نوعين من الآيات: آيات نصية، وآيات كونية. كتاب مسطور وكتاب منظور، وكل واحد منهما يؤدي إلى نفس النتيجة، وهي: الهداية، المعرفة، وجوب الإيمان بها، ووجوب الأخذ بها قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران].

ب-ضوابط علمية وفكرية:

* ليس هنالك من أحد يدعي أنه يحيط بكل ما في القرآن من المعاني، لأن ذلك غاية العلم والكمال، وهو منفي عن المخلوق أن يحيط بعلم الله كله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ .

* إن المجتهد يخطئ لكنه لا يكذب، لأن الكذب ينطلق من ثلاث:

- قول بلا علم.
- أو إعراض عن حق معلوم.
- أو سوء نية وقصد. وفي كل الأحوال فقد قال : «**إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد فاخطأ فله أجر واحد**» * لا عذر لمن قلد خطأ وهو يعلم. قال : «**من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين**».

* إن أقوال العلماء نوعان لا ثالث لهما : مؤيدة لكلام الله و كلام رسوله، ومخالفة لكلام الله وكلام رسوله. والمسلم العاقل لا شأن له مع الثانية.

* إن الإقتداء في الدين مشروط بالعلم، ومثل المقلد بدون العلم، كمثل المفكّر بعقل غيره: ﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾.

* «إن أسلوب [قيل وقال] يُضيّع الحق، ويجعله ملتبسا على الخاصة فضلا عن العامة. وأما كثرة السؤال فهي تثير الفتنة، والفتنة عامل التفرقة»

* «إن الآيات العلمية التجريبية الحسية أقوى من الآيات الشرعية لحصول الاطمئنان الإيمانيّ والنفسيّ في المعرفة: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، إنه سؤال ناتج عن عقل مؤمن بقدرة الله يسأل عن الكيفية، لذلك فهي القمة في العلم والإيمان اليقينيّ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ ﴾.

* «لا تقلّدوني، ولا تقلّدوا مالكا، ولا الشافعي، ولا الثوري، وتعلّموا كما تعلّمنا» (الإمام أحمد بن حنبل).

* لا يجوز لأحد اتباع مذهب من المذاهب إلا بثلاثة شروط:

- أن يعتقد أن لا عصمة لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.
- أن يجعل الحق مطلبه، فمتى استبان له القول الراجح أخذه دون تردد.
- أن لا يعقد عليه الولاء أو البراءة. (عبد الرحمن عبد الخالق في كتابه : الصراط).

* « ويل للأتباع من زلة العالم. قيل : وكيف ؟ قال: يقول العالم الشيء برأيه، فيلقى من هو أعلم منه برسول الله فيخبره فيرجع، ويقضي الأتباع بما حكم » (عبد الله بن عباس أخرجه الدارمي بسند صحيح).

ج-قواعد شرعية وعلمية:

هذه المبادئ الأساسية يجب على المسلم فهمها والتنبه لها، وهي:

الأولى: الاختلاف في دين يأتي من أمرين :

* الجهل بدين الله .

* اتباع الهوى وهو ترك حكم الله والإعراض عنه.

فالأول منصوص بقوله تعالى : ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ [الشورى:١٠] ، وعدم الخروج من هذا الاختلاف يعود إلى رفض التعلم والإصرار على الجهل .

وأما الثاني : فمنصوص بقوله تعالى : ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء:٥٩].

وعدم الخروج من هذا الاختلاف أيضا مرجعه رفض الانصياع لأوامر الله تعالى، ورفض قبول هدي النبي . لأن الله تعالى لم يقل فردوه إلى العلماء لحسم الاختلاف، ولا يكون للعلماء طاعة إلا في تطبيق أمر الله تعالى، وفي الأمور الخاصة بالقيادة، أو في الأمور العامة والمصالح المرسلة وتحقيق النظام العام وهذا يختلف كل الاختلاف عن الأمور الشرعية. وحقيقة الرّدّ إلى الله هي الرّدّ إلى ما جاء في كتابه من النصوص. وأما الرّدّ إلى الرّسول فيعني الرّجوع إلى سنته الفعلية والقولية المبينة لتلك النصوص والمطبقة لتعاليمها . ولا ردّ إلى غير هذين المصدرين . ودور العلماء هو مساعدة المسلمين عموما في فهم نصوص الكتاب على هدي السنة لا غير. فيؤخذ من كلامهم ما وافق الكتاب والسنة ، ويردّ ما خالف الكتاب والسنة

الثانية : [أن هنالك تأويل حسن، وتأويل فاسد].

والتأويل الحسن هو ما وافق معنى لفظيا صريحا، أو ضمنيّا مقرونا بالقرائن ما دخل في المقاصد الشرعية. وما خرج عن المعنيين فهو تأويل فاسد. والتأويل أمر لابدّ منه لفهم الدين ، والإدراك بالمعاني الضمنية الصحيحة . وهو استنطاق لمعاني الذكر الحكيم ، واستنباطها ، لذلك سماه القرآن بالتأويل الحسن : ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ **[النساء:٥٩]** ، ومن لا يحسن التأويل الحسن، فلن يكون فقيها. والتأويل الحسن له ضوابط لغوية وشرعية. والضوابط الشرعية أقوى ، وهي الحاكمة على الضوابط اللغوية . والقرآن مصدر محكم ، فلذلك لا بدّ من تأويله على ضوء محكم السنة لفهمه، ودليل كون القرآن كتابا محكما قوله تعالى : ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود:١].

الثالثة: [أن الحجة في النص وفي الإجماع].

وكل قول أختلف فيه ، فهو محل النزاع ، والمتنازع عليه لا يصلح أن يحسم الخلاف بين المسلمين . ولا يمكن أن يكون حجة . لذلك قال كثير من العلماء: (ليس لأحد أن يحتج بقول أحد في مسائل النزاع، وإنما الحجة في النص والإجماع، وذلك مستنبط من ذلك، تقرر مقدماته بالأدلة الشرعية لا بأقوال بعض العلماء، فإن أقوال العلماء يحتج لها بالأدلة الشرعية، ولا يحتج بها على الأدلة الشرعية. ومن تربى على مذهب قد تعودّه واعتقد ما فيه، فهو لا يحسن الأدلة الشرعية، وتنازع العلماء، لا يفرّق بين ما جاء عن الرسول وتلقته الأمة بالقبول بحيث يجب الإيمان به. وبين ما قاله بعض العلماء ويتعسّر أو يتعذّر إقامة الحجة عليه، ومن كان لا يفرّق بين هذا وهذا، لم يحسن أن يتكلم في العلم بكلام العلماء، وإنما هو من المقلدة الناقلين لأقوال غيرهم، مثل المحدث عن غيره. والشاهد على غيره لا يكون حاكما. والناقل المجرّب يكون حاكيا لا مفتيا).

الرابعة: [كما يوجد في القرآن محكم ومتشابه، كذلك يوجد في السنة محكمات ومتشابهات]

ومن متشابهات السنة قوله : **« صوموا لرؤيته ..»** والمتشابه هو كل لفظ يمكن أن يفهم منه غير المقصود به. فبعض العلماء ظنوا، أن معناه تحديد الوسيلة، مع أنه تحديد الوقت والزمن لا غير، لأن الوقت غير الوسيلة، والوسيلة غير الوقت. والرسول قد أجاز استعمال وسائل أخرى غير الرؤية البصرية، مثل: الرؤية بالواسطة (الخبر) والعدّ، والتقدير، وكل هذه الأمور الثلاثة في حكم الرؤية البصرية المباشرة. وبالرؤية دخلت الآلات الكاشفة. وبالرؤية أيضا دخل العلم. والعلم بالشيء في حكم رؤيته. وبالعلم دخل الخبر الصحيح (رؤية الغير)، لأن السماع بالشيء في حكم رؤيته. وبالعدّ والتقدير دخل الحساب .

الخامسة : [أنه لا مرد ولا نجاة من الخلاف إلا بالتسليم لسنة الرسول وبيانه فهو وحده من أوحي له النص وفهمه]

لأن لكل إنسان رأيه واتجاهه وميوله. والرأي بحر واسع ليس له ساحل. لذلك أمر الشرع الحكيم بالتجرد عن الآراء الخاصة، والأخذ بما جاء به الشرع الحكيم ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥]، ومن يدعي أنه يعلم ما تشابه من آيات الذكر الحكيم يقينا كأنه يقول والعياذ بالله أنا أعلم نية المشرع وهو الكفر الصريح، فلا يكون ذلك إلا بوحي، ولا وحي بعد محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

السادسة : [أن المذهب يبني علي الفهم الجزئي للنصوص الشرعية. أو على الفهم الفرعيّ الخاص من اجتهاد أحد الفقهاء]

فترى كل يؤيد فهمه ومذهبه. ويعتبر غيره مخطئا. مع أن المعاني الشرعية الفرعية كلها تابعة للمعنى الأصلي، وكلها صحيحة، ولكنها لحالة معينة. لذلك فلا ترى أبدا عالما بمعنى الكلمة، يكون مذهبيا مائة في المائة. وإنما يأخذ من كل آراء الفقهاء عموما. لأن مطلبه هو الحق يأخذه أين وجده. ويدقق في مفاهيم الفقهاء ويأخذ الصحيح ويضع الضعيف. لذلك ترى من ينسب إلي إمام ويخالفه في مسألة من المسائل.

السابعة : [التعصب لما اختلف عليه من آراء طريق إلى النزاع، والنزاع طريق إلى التفرق، والتفرق هو سبب ضعف الأمة]

إن أمتنا الإسلامية تتأذى من الغزو الخارجي، ولكن هذا الغزو الخارجي لا يثنيها عن إرادتها وعن رغبتها قال تعالى: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [آل عمران:١١١]. وإنما يثنيها عن إرادتها وعن رغبتها غزوها نفسها بنفسها. وهذه المقولة وعد من الله تعالى العليم القادر على كل شيء، كما جاء في صحيح مسلم عن ثوبان عن رسول الله ﷺ قال : «إن الله زوي لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها. وإن أمتي سيبلغ ما زوي لي منها. وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض. وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدوّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم. وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد. وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة. وأن لا أسلّط عليهم عدوّا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم، ولو اجتمعت عليهم من بأقطارها -أو بين أقطارها- حتى يكون بعضهم يهلك بعضا، ويسبي بعضهم بعضا» رواه مسلم. والاختلاف سبب التفرق. ومن أكبر أسباب التفرق الاختلاف في المفاهيم والرأي على الهوى وبغير العلم المنير».

إن الاختلاف في المفاهيم غالبا ما يكون بسبب: سوء فهم النص ، أو عدم فهم النص مطلقا . أو اعتبار بعض جوانب النص مع إهمال لجوانب أخرى . علما بأن نصا واحدا قد يحمل عدة معان فرعية بعد المعنى الأصلي ، وهو ما يدعى بالميل مع المعنى الجزئي دون المعني الشامل الكلي . وهو من أ سباب الاختلاف. وهو سبب وجود المذاهب الفقهية الفرعية في الإسلام.

والاختلاف في الشعائر الإسلامية (الحج والصوم) ليس كمجرد الاختلاف في بعض العبادات المحضة، ولكن الاختلاف في الشعائر ملحق بالاختلاف السياسي للأمة، وذلك لما للشعائر من دور في توجيه سياستها، كعامل من عوامل الربط والجمع والقوة والاحترام فالصلاة الجامعة في جامع كان مقرا للحكم والحكمة لم يكن لعبادة الصلاة بل لسياسة الشئون العامة للمسلمين الواقعين في حدود الجامع الذي لا يجب أن ينشأ جامع ضرار يقسمهم ويفتتهم ، وكانت الجمعة مؤتمرهم المحلي الأسبوعي كما كان الحج مؤتمرهم العام السنوي وهكذا العبادات كلها كانت جزء لا يتجزأ من الحياة العامة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ..

الثامنة : [أن غير المعقول لا يمكن تبريره شرعا].

إن من الأمور التي لا يمكن أن يبررها عقل سليم، لا يمكن أن يبررها شرع حكيم مثل الإسلام، أن يوجد اليوم في هذه الأمة بعض المسلمين في شرقها وفي غربها يصومون ويفطرون ويضحون. وبعضها في وسطها لا يصوم ولا يفطر. أو يصوم شمالها ويفطر، ولا يصوم جنوبها ولا يفطر. أو يوجد في بلد واحد عيدان، أو ثلاث أعياد. مع أن الكل على علم بظهور الهلال. إن هذا العمل وهذا التطبيق ليس له اليوم ما يبرره. وإن كان له بالأمس ما يبرره شرعا: مثل صعوبة معرفة أحوال الأقطار البعيدة، وصعوبة وصول الخبر عن رؤية الهلال . وعدم وجــود المعدات الكاشفة وعدم معرفة الحساب وعلم الفلك وعدم الإلمام بالتقنيات الحديثة.

التاسعة : [قد يكون شيء عقبة أمام السلف ثم لا يكون مثله عند الخلف]

إن من أكبر الأخطاء التي يمارسها المسلمون اليوم هي اعتبار الحدود السياسية أسبابا للاختلاف في الشعائر الإسلامية، أي في الصوم والإفطار والأضحية. إن أسباب اختلاف المسلمين الأوائل في الصوم والإفطار والأضحية، مرجعه: انعدام الاتصال، وتباعد الأقطار، وأما اليوم فمرجع اختلافهم هو الحدود السياسية . فتجد المسلم يقول : «إن الهلال قد ظهر في الدولة الفلانية، ولكن لم يظهر عندنا»، دون إدراك للفرق بين الدولة والأمة، كأن المسلم لا يجوز له أن يعمل برؤية غير أهل بلده، وكأن الخبر الصحيح ليس له شأن في حكم الشرع، مع أن النبي وأصحابه كانوا يأخذون بالخبر الصحيح من غير أهل البلد، ولذلك يقول الإمام أحمد : **«حكم من سمع حكم من رأى »**.

العاشرة : [من العلوم الشرعية ما لا يمكن تفسيرها إلا بلغة العلم، وأن العلوم الطبيعية والتجريبية والعقلية جزء من القرآن].

إن من أكبر الأخطاء أيضا إنكار الحساب ونفيه لمعرفة أحوال القمر. والرسول لم ينفه عن أمته إلا لعدم القدرة والأمية، في الوقت الذي كانت الأمة في بداية نشأتها، لذلك أمر باتباع الطرق المحسوسة أو البسيطة، فقال : **« نحن أمة لا نقرأ ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا. يعني مرة تسعة وعشرين، ومرة ثلاثين »** (البخاري في الفتح رقم / ١٩١٣)، والبسط في هذه المسألة عندما نتكلم في جواز الحساب لمعرفة منازل القمر وظهوره .

الحادية العشرة : [اختلاف الزمان والمكان غير اختلاف الحجة] .

إن هنالك ما يدعى باختلاف الحال والزمان والمكان، لا باختلاف الحجة والبرهان ومن ضوابط الفتوى مراعاتها للحال والزمان والمكان، إذ يتغيّر الحكم تبعا للحال المصاحب له، مع بقاء النص الشرعي على حاله. ففي حالة عدم المعرفة يبقى حكم رؤية الهلال مقيّدا على مكان محدد. بينما في حالة انتشار العلم والخبر، ينتفي الحكم تبعا للحال السائد في الزمان. يقول الدكتور محمد فؤاد البرازي في مقال له في مجلة البيان العدد (١٧٨) حول العنوان: **« الفتوى الشرعية ضوابطها وأثرها في رشاد الأمة»** :

« هذا ما جعل بعض أصحاب أبي حنيفة خالفوا إمامهم في مسائل كانت مبناها على العرف أو تغير الزمان أو المكان أو الأحوال ، ولاسيما بعد وفاته . وعلل الفقهاء هذا النوع من الاختلاف بأنه اختلاف عصور وزمان لا اختلاف الحجة والبرهان . والإمام الشافعي صار له مذهب جديد حين استقرّ به المقام في مصر، لأمور عديدة من أهمها : تغير الزمان والمكان والأحوال » .

وهذه الحقائق من لا يعرفها فلا يحق له أن يتكلّم في المسائل ، ولا أن يتصدر للفتوى . خاصة في المسائل التي كان للرسول ﷺ فيها سنة ماضية معروفة ، ولكن مع صعوبة التحدث إلى الناس اليوم ، ومع عدم احترام الناس للأدلة الشرعية ، ولكثرة القيل والقال ، وكثرة المذاهب والطوائف والانتماءات والتحزب والتعصب ، كل هذه الأمور جعلت التحدث إلى المسلمين اليوم أصعب من ذي قبل . ولكن كما يقال: **(إن العاشق لا يمل الانتظار وإن الراغب زاده الأمل والرجاء)** . ومن يحب هذه الأمة ، لا يسأم بكثرة ذكر الأدلة الشرعية ، ولا يتضجر لكثرة صخب المعارضين للمألوف.

د-منهج الإسلام في تقديم العلوم الشرعية:

إن هنالك منهجا يعرف بالمنهج الإسلامي في تقديم العلوم والمعارف الإسلامية تقديما صحيحا، وهذا المنهج الصحيح – قديما وحديثا – هو ذكر الأدلة الواردة في أية مسألة من المسائل. والأدلة هي قراءة النص القرآني في ضوء السنة النبوية، واستنباط الأحكام من المحكم المنزل على ضوء الحكمة المحمدية وما يفهم منهما من معان أصلية وحقيقية وعلمية ، فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم وحده دون غيره الذي أوحي له النص وفهمه فهو الرسول والنبي والمعلم والقدوة أرسل ليعلم الأمة الكتاب والحكمة معا بمعنى استنباط الأحكام للحكم بها والتحاكم إليها. وهذا المنهج، هو المنهج الوحيد الذي يجنّب العبد الانحراف والخطأ في فهم الدّين. ثم نذكر بعد ذلك ما يؤيد القرآن والسنة من كلام أهل الذكر والفقهاء والعلماء، ثم ننبذ ما يخالفهما من كلام الناس مهما كانوا، فالكل يؤخذ منه ويرد إلا من أوحي له القرآن وفهمه عليه الصلاة والسلام، وهذا المنهج أيضا هو الحق والصواب والهداية، وهو سبب حصول التوفيق، كما قال تعالي : ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:٣] وقال ﷺ : «**من رغب عن سنتي فليس مني**» (الشيخان) . والأخذ بكلام العلماء المخالف لكلام الله، هو ما يعبّر عنه باتخاذ الأرباب من دون الله، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١]. وقد فسر الرسول هذا المعنى في حديث عدي بن حاتم، عند ما دخل على رسول الله ﷺ فقرأ النبي قوله تعالى: **« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون والمسيح ابن مريم»** فقال : يا رسول الله نحن لا نعبد علماءنا ؟ فقال له الرسول : **«أليسوا يحلون لكم ما حرم فتطيعونهم ؟ ويحرمون عليكم ما أحل فتطيعونهم؟ قال : بلى قال فتلك عبادتهم»** (رواه أحمد والترمذي).

وقال السدي: أي استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ..« واتباع كلام غير الأنبياء مع ترك سننهم، فأقل ما يعاقب عليه هو: قطع الولاء مع رسول الله ، كما قال صلى الله وسلم: «**من لم يعمل بسنتي فليس مني**» (ابن ماجه). وقال أبو العالية: إن أول ما دخل النقص في بني إسرائيل أنهم وجدوا كلام علمائهم يخالف كلام الأنبياء، فقالوا: إننا لا نريد أن نخالف علماءنا». أي نتأدب مع علمائنا؟. والعاقل يدرك أي منهما الأكثر خطورة : مخالفة العلماء، أم مخالفة الأنبياء ؟؟ .

إن اتباع أسلوب المتأخرين، وهو أسلوب حسب ما هو معروف في أمتنا علي مدار العصور الوسطى والحديثة، هو الذي ضيّع الحق أمام الخاصة، فضلا عن العامة. والأخطر من ذلك كله ما أضيف إلى هذا الأسلوب من تعصب للآراء، وتقديم اجتهاد على سنة ماضية للرسول صلى الله عليه وسلم. هذا التصرف أيضا أضرّ الأمة الإسلامية، وفرّق شملها، وفتح الباب أمام المخالفات، ويسّر من ترك السنة وعدم المبالاة بها، وحرم الأمة من الوحدة والاتفاق. ولذلك حذر النبي من مغبة هذا السلوك العشوائي التخبطي اللا تمييزيّ ، فقال : « إن الله يرضى لكم ثلاثا. ويكره لكم ثلاثا. يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا. وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا. وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم. ويكره لكم ثلاثا: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال (مسلم عن أبي هريرة). وذلك لأن قيل وقال يضيّع الحق، وكثرة السؤال تثير الفتنة. والفتنة أخطر عوامل التفرق. وأخرج البخاري عن ورّاد كاتب المغيرة بن شعبة، أن المغيرة طلب منه: أن أكتب إليّ بحديث سمعته من رسول الله ؟ فكتب المغيرة، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول بعد الفراغ من الصلاة: « لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الحمد وهو على كل شيء قدير » ثلاثا مرات. وكان ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال، ومنع وهات، وعقوق الأمهات ووأد البنات ». والاجتهاد كما يقال فيما لا نص فيه، وفي المعاني العامة التفصيلية، وفي الأمور الجارية المتطورة للحياة. لا في العبادات ولا في الأركان ولا في الأصول، فهذه أمور ثابتة. وهذا المنهج المذكور – تقديم الأدلة الشرعية ثم ذكر ما يؤيدها- هو الذي يجب على الجميع اتباعه، وهو المنهج الواضح الذي لا شبهة فيه ، وهو المنهج الحق ، والحق أحق أن يتبع ، والحق حق ولو لم يتمسك به أحد ، والباطل باطل ولو تديّن به من في العالم كلهم : ﴿أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥] وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ٦٦ لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام:٦٦-٧] وقوله تعالى : ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [آل عمران:٦٠] وقوله تعالى : ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [النحل : ٩] أي طريق الحق من الله، وطرق الجور من غيره . وطريق غير الله طويل ولا يوصل إلي الهدف . والله يقول الحق ، وهو يهدي السبيل . اللهم اهدنا واهد بنا ؟؟

هـ-الإسلام محكم يتقدم على الزمان والمكان:

إن نصوص الشرع قد أحكمت من رب الأرباب، وما ترك الخالق الخبير صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. وما نسي شيئا. ولا يمكن أن يأتي زمان بشيء يسبق هذا الكتاب: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ ومسألة وحدة المسلمين في شعائرهم، مسألة تدخل في صميم الدين وفي أصوله ، فلا تدخل في مسائل الاجتهاد والنظر، لأن رسول الله ﷺ قد بتّ فيها، وإن كان المسلمون اليوم لا يحسنون فهم دينهم حقيقة الفهم. والاجتهاد في محاولة إيجاد أدلة تفريقهم وليس في إيجاد أدلة وحدتهم. وإن ديننا الإسلامي في نصوصه المحكمة لا يتأخر عن أي زمان. وإن الناس هم الذين يتأخرون عن القرآن وعن العلم ، لعدم فهم نصوص هذا الدّين القيّم: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ **[الأنعام:٣٨]** وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣] ومما يدل على كون النصوص الشرعية محكمة أي شاملة ، هو أن هذه النصوص تكون أحيانا خاصة ، كما تكون أحيانا عامة. طبقا لأحوال الناس وظروفهم . فمثلا قوله ﷺ : **«صوموا لرؤيته ..»** فهذا النص يصلح مع الجماعة الخاصة ، كما يصلح مع الجماعة العامة . وتبقى الظروف المحيطة هي التي تحدد المفهوم ، وتحدد طريقة التطبيق. مثلا، ففي المجتمعات البدائية ، ومجتمعات انقطاع الأخبار، يفهم منه العبد أنه ينبغي أن ينتهي حيث ينتهي علمه وقدرته ، لأن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها . ولا يطالب أحدا أن يعمل خارج حدود علمه وقدرته . لذلك فأهل المجتمع الخاص يفهمون من النص أنه خاص بالنسبة لهم . لأنهم يفهمون من النص أن جماعتهم الخاصة في هذه الحالة هي المخاطبة حقيقة . وهم على صواب في هذا الفهم .وأما في المجتمعات العلمية والمتقدمة ، التي ينتشر فيها العلم ، وتتواصل الأخبار ، وتنكشف الحجب ، وتتوارد المعلومات ، ولا يوجد فيها ما يدعى بالمجهول ، ففي مثل هذه المجتمعات أيضا يفهم منه العبد بأن النص عام لكل من يصل إليه الخبر . لذلك قال أكثر الفقهاء بأن نص : **« صوموا لرؤيته ..»** نص عام لجميع الأمة وهم على صواب في هذا الفهم ، لأنه من دلالات هذا النص . مع كون دليلهم هذا أرجح ، لأنه كما يقال: **(إن العام يبقى على عمومية ما لم يخصص بتخصيص أو يقيّد بقيد)** . فالشمولية والعمومية قد جاءت لهذا النص من أنه يستدل به للحالتين معا . وهذا مع أن المفهوم الأصلي هو الأولى ، وهو كون النص عاما.

ولفظ (المحكم) هو ما كان له معنى واضحا لا يقبل الاختلاف . ولكن يتعدى أحيانا إلى معنى الشمولية والعموم لأن اللفظ الواضح محكم ، وكما أن اللفظ الشامل محكم أيضا. **فالشمولية الشرعية في الإسلام لأمر محسوس وملموس وملحوظ ، في كل جوانب الإسلام .أي بحسب الظروف والأحوال من ناحية ، ومن ناحية أخرى بحسب الوسائل** . فالنصوص الشرعية في الوسائل تكون في الغالب شاملة غير مقيدة،

وعلى سبيل المثال

- فالطهارة تكون : بالماء ، وبالتراب ، وبالحجر، ..

بالماء بكل أنواعه: ماء المطر – ماء النهر– ماء البحر- ماء الثلج..

وبالتراب بكل أنواعه : التراب الرملي – الطيني -الحجري..

وفي المعرفة كذلك تكون : بالرؤية البصرية المباشرة، وبغير المباشرة (الواسطة)، وبالعد ، وبالتقدير، وبالقياس والحساب ...

وهذه القاعدة (قاعدة الشمولية والعموم) هي التي جعلت الشريعة الإسلامية شريعة شاملة واسعة غير ضيقة ، لأن الضيق يورث المشكلة والحرج : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] لذلك فكل من ظن أن هنالك تعارض بين الاكتشافات العلمية وبين نصوص الشرع. فهو الذي لا يفهم النصوص الشرعية .

إن بعض من ينسب إلى العلم ، قد يقول مثل هذا القول : هذا شيء لم يفعله الرسول ؟ وهم يريدون الاحتجاج ، أو الدفاع عن آرائهم الخاصة . مع أن هذا القول ، فيه وجه صواب ، ووجه خطأ أحيانا . لأنه إذا كان المراد من قولهم : هو أن هذا العمل لم يشرع في الإسلام ، فكلامهم في ذلك الوقت صحيح وفي محله . لأن كل ما لا يدخل في مفاهيم الشرع ولا في معانيه ، ولا في عمومه وشموليته ، فهو ليس من الإسلام في شيء . وأما إذا كان مرادهم مجرد أن هذا العمل لم يمارسه الرسول شخصيا فهو الكلام فيه شبهة . لأنه يمكن أن لا يعمل الرسول عليه الصلاة والتسليم بشيء ولكنه قد أمر به بنص صريح ، أو ضمنيّ ، أو بعدم نفيه ، أو بدخول هذا الأمر في عموم الشرع وفي مقاصده الكبرى . وهذه الأمور دائما تكون في باب الوسائل وفي المصالح العامة في الدين .

كثيرا ما ينفي بعض الفقهاء شيء ظنا منهم أنه ليس من الإسلام فيما يتصل بالمسائل المتعلقة بالعلم ، وذلك لعدم فهم المسألة . أي النصوص الشرعية التي دلت على هذه المعاني . وذلك قد حدث لبعض الفقهاء في مسألة كروية الأرض ، والهبوط على سطح القمر ، وزرع العضو لإنقاذ الحياة ، وحتى في طريق الشهادة في الجهاد ، فبعض الفقهاء اليوم ، قد يرون أن العمليات الاستشهادية التي يقوم بها بعض المسلمين اليوم في فلسطين وغيرها نوع من الانتحار. وهذا كله يعود إلى سوء فهم النصوص الشرعية . إن مسألة رد الخلاف إلى الله وإلى الرسول يقولها الكثير ويرددها ولكن دون الإيمان بها . لأن مفهوم الرّدّ في زعمهم هو النزول عند الرأي الخاص ، أو عند رأي إمام مخالف لبيان الكتاب والسنة .

إن هنالك نصوصا نفهمها مستقلة عن غيرها. ولكن هنالك نصوص كثيرة في هذا الشرع لها علاقة بنصوص أخرى . ولا يمكن فهمها مستقلة عن تلك النصوص ، ومن أخطر أسباب الخلاف والتفرق أن جل من يدّعى السلفية في وقتنا المعاصر ، مذهبهم أهواؤهم وآراؤهم الخاصة . وكما أن الانتساب إلى مقولات السلف دون عرض على ميزان الكتاب هو الذي يجعل البعض يعرضون عن ما صح عن . فإن التقليد الأعمى أيضا جعل البعض لا يملكون حق التفكير أو البحث حتى في المسائل النظرية ، وهو أيضا موقف ممقوت شرعا . وأقول أخيرا خوفا من الإطالة : إن الإسلام قد تقدّم على العلم وعلى الزمان والمكان، ولا يمكن أن تأتي الحياة بشيء لم يعرفه الإسلام، أو لم يضع له حكما خاصا ومناسبا ، وأن كل ما يعين المؤمن في أداء شرع الله ، لا يمكن أن يكون مرفوضا شرعا . وأن من شروط العمل والاستدلال في هذا الدّين ، وضع كل شيء في محله . وتسمية كل شيء باسمه . فسنة القول غير سنة الفعل . وسنة الفعل غير الأثر . وأثر الرسول غير أثر الصحابة ، وأثر الصحابة غير عمل المتأخرين في الدرجة . ولكي نفهم ديننا فلا بدّ من وضع كل شيء من هذه الأشياء في محله.

تعريف السنة والحـــديث والأثـــر

أ-التمسك بالسنة حاصل الإيمان والهداية:

إن التمسك بسنة رسول الله ﷺ هو دليل الإيمان برسول الله ﷺ . والإيمان برسول الله هو أساس العقيدة الإسلامية والسبيل لمعرفة الله سبحانه وتعالى والإيمان به دليله والعمل بكلامه تعالى. وبما أن طاعة الله تكون بمعرفة كلامه، والإيمان به، والعمل على وحيه المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ. فكذلك . فطاعة الرسول تكون بمعرفة هديه وسنته والعمل بها على الوجه الصحيح، بلا زيادة ولا نقصان. كما قال تعالى : ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور:٥٤] وكما قال ﷺ : **«والذي نفسي بيده لا يؤمن أحد كم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به»** (أخرجه الحافظ ابن كثير في التفسير). والسنة هي الوحي الثاني المبيّن لمعنى الوحي الأوّل (أي القرآن). قال تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل:٤٤]. وقال ﷺ : **«ألا أعطيت القرآن ومثله معه» (أبو داود وغيره).**ومن حرم من معرفة سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حرم من فهم القرآن. بل من حرم من تطبيق سنة الرسول والعمل بها، حرم من القبول، ومن رضا الله ومن رحمته: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران].﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور:٥٦].

لذلك فالمبدأ الإسلامي هو:أنه ليس هنالك فرق في وجوب التمسك بالكتاب والسنة، بل الأولى والأجدر هو التمسك بالسنة، لأنها هي الشارحة للقرآن، والدليل على فهمه.وترك السنة ليس مسموحا لأحد من الناس، لأن بها مدار الهداية والفقه والتوفيق ومنع الاختلاف. ومن يتأمل دلالات النص الإلهي في آية: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ ، وهي أول ما نزل من القرآن بإجماع الرواة، يجد أن النص يقول بوضوح أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أصبح ناطقا باسم الخالق سبحانه منذ تلك اللحظة، ومنها فإن حد الإيمان هو تصديقه صلى الله عليه وآله وسلم في كل ما جاء به بعد ﴿ٱقْرَأْ﴾ ، والأخطر أن حد الكفر هو رد أي قول أو فعل أمر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد ﴿ٱقْرَأْ﴾. ولا يجوز لمسلم أن يعدل عن السنة لقول أحد كائنا من كان. وحلالها هو حلال القرآن، وحرامها هو حرام القرآن، كما قال ﷺ **:« ألا عسي رجل يبلغه الحديث عني، وهو متكئ علي أريكته فيقول: بيننا وبينكم كتاب ، فما وجدنا فيه حلالا استحللناه، وما وجدنا فيه حراما حرمناه، وإن ما حرّم رسول ﷺ كما حرّمه »(الترمذي وأبو** داود وابن ماجه). وما انتقل رسول الله ﷺ إلى ربه إلا بعد أن بلغ الرسالة وأدي الأمانة، وترك أمته علي محجة بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

ب-تعريف السنة والحديث والأثر:

كل ما ينسب إلى الرسول من قول، أو عمل ، أو صفة ، أو تقرير ، أو توجيه ، يدعى (سنة) . والسنة شاملة لكل هديه ، وقوله ، وتطبيقاته العملية . لذلك يقال: إن لفظ(السنة) ، لفظ شامل لكل ما جاء عن رسول الله أو ما نسب إليه ، فهي أشمل وأوسع من لفظ الحديث . ولفظ السنة مرادف للفظ (الهدي) ، والهدي أيضا يشمل جميع أنواع السنن : القولية والفعلية والسلوكية وغيرها .

وبعض الكتاب يخطؤون ويخلطون بين السنة والحديث ، ويقولون : (الحديث ما أضيف إلى النبيّ من قول أو فعل أو تقرير أو وصف خلقيّ أو خلقيّ) وهذا القول سببه عدم التمييز بين ما هو حديث وبين ما هو سنة فعلية أو سنة وصفية. ومثل هذا التعريف يوجد كثيرا في كتب القوم ، وخطأ فاضح . وهو يجعل طلاب العلم لا يفرقون بين السنة القولية والسنة الفعلية ، وهما ليسا في درجة واحدة .

تعريف الحديث (**السنة القولية**) : والحديث لفظ خاص، لنوع معيّن من السنة، أو هو جزء واحد من الأجزاء المكوّنة للسنة عموما . ولذلك يقال: إن لفظ الحديث أخص من لفظ السنة [والحديث كلام منقول عن النبي لفظا ومعنى]. وهو المشار إليه في قوله تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ **[النحل : ٤٤] وقوله :** ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ **[النجم]**.

وقوله تعالي: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر].
وقوله : «**نضر امرؤ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه غير فقيه**»(الترمذي وغيره). والحديث نصوص شرعية يحفظ ويكتب وينقل ويستنبط منه المعاني والأحكام . وتجري عليه المباحث اللغوية والقواعد والأحكام . لذلك فإن رواية الحديث أو حفظه أو نقله، لا يعني كون الراوي أو الحافظ أو الناقل أكثر فهما أو أفقه للمدلول . وهذا الخطأ يقع فيه الكثير من المقلّدة . قال : « **فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه غير فقيه**».
ويقول علماء الأصول: « فأما قوله فيحتج به كما يحتج بالقرآن ، لأنه لا ينطق عن الهوى – ويجري فيه ما يجري في القرآن من المباحث اللغوية [والفقهية] فإنها إنما تتصرف في الأقوال . ولولا الحديث لم تنعم هذه الأمة بإدراك فصاحة النبي وبلاغته ، ودقة تعبيره . ولولا الحديث لم تنعم الأمة بسعة المعاني والمفاهيم . ولولا الحديث كذلك لم تنعم الأمة بالفقه والفهم والتمييز.

والحديث يكون مسندا ومتصلا ، أو مرفوعا ، أو موقوفا ، أو مرسلا وغيره بحسب الرّواية والسّند. ويكون صحيحا، أو حسنا، أو ضعيفا، بحسب طبيعة الراوي وميزته. ويكون شاذا ، أو غريبا، أو منكرا، بحسب المعنى والمحتوى والمضمون.

ج-تعريف السنن العملية والسلوكية:

[ما كان منسوبا إلى النبي من فعل أو صفة أو تقرير بترجمة حيّة عن صحابي، ويسمى «سنة» أي سنة عملية أو سلوكية أو وصفية. أي أن الفعل أو السلوك أو الصفة أو الموقف للرسول واللفظ للصحابي]. وهي المشار في قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ **[الأحزاب]** والسنة العملية أو السلوكية أو الوصفية سنن نقتدي بها وهي نوعان: ما يكون واجب الاقتداء، وهي سنن القربات والسنن التعبدية. ونوع لسنا ملزمين بتطبيقها إلا تطوعا، وهي ما تكون من جنس العادات الدنيوية. ولذلك يقول علماء الأصول: « وأما أفعاله فتنقسم إلى قسمين :

- **قربات**
- **وعادات.**

فإن كان من العادات كالأكل والشرب واللباس، والقيام، والقعود، فهو دليل على الجواز. وإتباعه في كيفية ذلك وصفته حسن.وإن كان من القربات، فهو ثلاث أوجه :

- إن كان بيانا لغيره ، فحكمه حكم المبيّن . فإن بيّن واجبا فهو واجب ، وإن بيّن مندوبا، فهو مندوب.
- وإن كان امتثالا لأمر، فحكمه حكم ذلك الأمر.
- وإن يفعله ابتداء من غير سبب ، فاختلف فيه .

وهذه الدرجات للسنن العملية يجب على العلماء بيانها للناس ، وعدم جعل السنن كلها في كيس واحد . وهذا التقسيم الذي في السنن العملية لا توجد في السنن القولية . وهذا ما جعل بعض العلماء يرون من ترك سنة عملية واحدة من سنن العادات متهما بالكفر جهلا بهذا التقسيم العلمي السنيّ

د-تعريف الأثر:

[ما كان حجة للصّحابيّ وبيانا مؤصّلا]. ويسمى في اصطلاح المحدّثين أو علماء الأصول ب : **(الأثر)** .أي المعنى منسوب إلى الرسول ، والكلام للصحابيّ، ولذلك يقال بأنه مرفوع معنى لا لفظا ، لأنه من فهم الصحابيّ . والأثر قريب من التقرير وليس تقريرا . لأن التقرير يدخل في السنن القولية أحيانا ، وأحيانا أخرى يدخل في السنن العملية ، إذا كان الأمر المقرر به عملا من الأعمال . بل التقرير أقوى حجية من الأثر ، لأن التقرير اجتهاد صحابي مصدّق من الرسول . بينما الأثر اجتهاد صحابيّ غير مصدّق من فم الرسول . لذلك فقد صدق الشوكاني لما قال في أثر كريب : بأنه اجتهاد لابن عباس . ويمكن القول أنه فتوى له .

وعلماء الأصول والمحدثين قالوا:

- الخبر ما كان عن رسول الله □.
- والأثر ما كان عن الصحابيّ . وعزا ابن الصلاح التسمية إلى الخراسانيين.

وقد يقول بعض القراء الأثر ويقصد به الخبر . وقد جمع بعض الأصوليين الآثار في كتب خاصة، مثل كتابي : السنن والآثار للبيهقيّ والطحاويّ.

إذن بالاقتصار : فالسنة لفظ عام وشامل لكل ما ينسب إلى رسول الله □ وهو صحيح النسبة إليه ، ويكوّن الحديث جزءا من أجزائها. ولكن الحديث أخص منها وأكثر أقسامها تميّزا هي :

ـ السنة القولية. ويدعي الحديث . وتشمل جميع أقواله □ أمرا ونهيا.

ـ والسنة العملية والسلوكية . وتشمل : السلوك الفعلي للنبي ، والصفات والأخلاق والتقارير العملية، وما يدخل في مضمونها.

ـ **والآثار.** ويدخل فيها كل ما ينسب إلى النبي من المعاني (قولية كانت أو فعلية) من الصحابة، رضوان الله عليهم أجمعين. وليس الأثر في قوة الحديث أو السنن العملية والسلوكية. بل حجة إذا فقدنا الحديث والسنن العملية والسلوكية.

ـ و الآثار تسمى حديثا لغة ومجازا لا شرعا واصطلاحا. وعندما نطلق عليها لفظ الحديث نقصد أنها حديث للراوي لا لرسول الله . بل ينسب المعنى إلى رسول الله □. لذلك يقال بأن الآثار مرفوعة معنا لا لفظا. وأما إذا فقدنا حديث رسول الله □، ونعرف السنة العملية، يمكننا الاعتماد على الأثر.

هـ-درجات السنن وقوة دلالاتها:

وكل ما ينسب إلى رسول الله يدعى عموما «سنة» والسنة على ثلاث درجات.

الدرجة الأولى : (الحديث) وهو أقوى درجات السنن كلها في الدلالة وفي الاستدلال، وأولاها بالأخذ والعمل به، كما أسلفنا آنفا. وهو مقدّم على غيره .

وألفاظ الحديث هي :

ـ قال رسول الله □ : (كل ما يأتي بعده حديث).

ـ عن رسول الله □ : (كل ما يأتي بعده حديث).

ـ عن النبي □ قال : (كل ما يأتي بعده حديث) .

ـ سمعت رسول الله □ يقول : (كل ما يأتي بعده حديث).

ـ حدثني أو حدثنا رسول الله فقال : (كل ما يأتي بعده حديث) .

ـ أخبرني أو أخبرنا رسول الله فقال : (كل ما يأتي بعده حديث).

ـ أوصاني أو أوصانا رسول الله فقال : (كل ما يأتي بعده حديث).

ـ ألا أخبركم ، أو ألا أنبئكم بكذا : (كل ما يأتي بعده حديث).

مثال الحديث : عن أبي هريرة ط قال : قال رسول الله : «صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين» **(**متفق عليه**).**

الدرجة الثانية : (السنن العملية والسلوكية):

وتأتي السنة العملية بعد الحديث في الاستدلال ووجوب الأخذ بها، وعند تعارضهما، كما يقول علماء الأصول، فالعمل لحديثه لا لسنته الفعلية ، إلا الإمام مالك الذي يرى العمل بسنته الفعلية أولى ، وأما عند عدم التعارض فالأخذ بهما معاً هو الصواب (الحديث هو قول يخاطب به الرسول آمرا أو ناهيا أو مبينا ، وهو واجب الاتباع بإجماع ، أما عمل الرسول فبعضه خاص به وأمته غير مكلفة بإتيانه لخصوصيته النبوية (بشر يوحى إلي) أي أنه بشر تميز بالوحي .

وألفاظ السنة العملية، هي :

ــ نهى أو نهانا رسول الله عن كذا : (ما يذكر بعده سنة عملية أو سلوكية**).**

ـ كان رسول الله يأمرنا أو ينهانا عن كذا: (بعده سنة عملية أو سلوكية أو سلوكية).

ـ كان رسول الله يأكل أو يشرب أو يفعل:(بعده سنة عملية أو سلوكية).

ـ كان من هديه كذا : **(** بعده سنة عملية أو سلوكية).

ـ كان إذا رأى كذا فعل كذا وكذا (بعده سنة عملية أو سلوكية).

ـ كان إذا خاطب الناس فعل كذا أو كذا (بعده سنة عملية أو سلوكية).

ـ كان يحب، أو يكره كذا : (بعده سنة عملية أو سلوكية).

ومثال السنة العملية والسلوكية: عن أنس ط قال : كان النبي إذا تكلّم بكلمة أعادها ثلاثا حتى نفهم عنه ، وإذا أتى على قوم فسلّم عليهم، سلّم عليهم ثلاثا» **(**البخاري**).**

ولا يقال هذا حديث رسول الله ، بل يقال كان من سنته العملية في الخطابة وفي التسليم.

الدرجة الثالثة (الأثر) يأتي في الدرجة الثالثة في الاستدلال بعد السنة العملية. وإذا تعارض الأثر مع السنة العملية أو الحديث، فلا اعتبار لهذا الأثر ولا قيمة له شرعا.

وألفاظ الأثر وصيغه، هي :

ـ عن فلان قال دون ذكر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : (ما يذكر بعده أثر أي ليس بحديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم).

ـ فعلت، أو فعلنا مع رسول الله كذا : (ما يذكر بعده أثر أي ليس بحديث الرسول).

ـ أو بلفظ كنا (نقول كذا) أو نفعل كذا في عهد النبي دون تدخل الرسول بنعم أو لا : (وكل ما يذكر بعده أثر أي بحديث الرسول).

ـ أو أن يختم الصحابي كلامه (هكذا سمعنا) وكل ما يذكر بعده أثر ، وليس بحديث للرسول.

ـ أو أن يختم الصحابي: كلامه بقوله:هكذا أمرنا رسول الله ، أو هكذا أمرنا : (وكل ما يذكر بعده أثر، وليس بحديث الرسول).

أمثلة للأثر:

مثال ١ : عن أبي الوليد عبادة بن الصامت ط قال : «بايعنا رسول الله على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله إلاّ أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله تعالى فيه برهان، وعلى أن نقول الحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم» **(متفق عليه)**

مثال ٢ :وعن أنس قال : «كنا نصلي على عهد رسول الله ركعتين بعد غروب الشمس قبل المغرب، فقيل : أكان رسول الله عليه وسلم صلاهما ؟ قال : كان يرانا نصليهما فلم يأمرنا ولم ينهنا» **(مسلم)**

مثال ٣ : وعن حذيفة ، قال : أتي الله بعبد من عباده، أتاه الله مالا، فقال له : ماذا عملت في الدنيا ؟ - ولا يكتمون الله حديثا – قال : يا رب أتيتني مالك، فكنت أبايع الناس، وكان من خلقي الجواز، فكنت أتيسر على الموسر، وأنظر المعسر، فقال تعالى : أنا أحق منك، تجاوزوا عن عبدي ؟» فقال عقبة بن عامر وأبو مسعود الأنصاريّ ل هكذا سمعنا من في رسول الله . **(رواه مسلم)**

مثال ٤ : عن أبي البختري قال : خرجنا للعمرة فلما نزلنا ببطن نخلة قال : تراءينا الهلال. فقال بعض القوم : هو ابن ثلاث . وقال بعض القوم : هو ابن ليلتين. قال : فلقينا ابن عباس، فقلنا : إنا رأينا الهلال. فقال بعض القوم هو ابن ثلاث. وقال بعض القوم : هو ابن ليلتين. فقال : أي ليلة رأيتموه ؟ قال : فقلنا ليلة كذا وكذا. فقال : إن رسول الله ، قال : إن الله مدّه للرؤية. فهو لليلة رأيتموه» **(مسلم رقم / ١٠٨٨)**

مثال ٥ : عن كريب أن أم الفضل بنت الحارث بعثته إلى معاوية بالشام. قال : فقدمت الشام، فقضيت حاجتها، واستهل عليّ رمضان وأنا بالشام. فرأيت الهلال ليلة الجمعة. ثم قدمت المدينة في آخر الشهر يعني رمضان، فسألني ابن عباس م . ثم ذكر الهلال. فقال: متى رأيتم الهلال ؟ فقلت : رأيناه ليلة الجمعة. فقال: أنت رأيته ؟ فقلت : نعم. ورآه الناس وصاموا. وصام معاوية. فقال : لكنّا رأيناه ليلة السبت، فلا نزال نصوم حتى نكمل ثلاثين أو نراه. فقلت : أو لا تكتفي برؤية معاوية وصيامه ؟ فقال: لا، هكذا أمرنا رسول الله «مسلم» .

وقبل ختم هذه الفقرة من الفائدة ذكر ما يلي :

أولا : أن كتب السنن، سواء الصحاح منها، أو السنن، أو المساند، أو المستدركات، كل هذه الأنواع يضم في طيها وفي داخلها : الأحاديث، والسنن العملية أو السلوكية، والآثار. بل ويضم على أقوال الصحابة والتابعين، وأقوال مشاهير علماء المسلمين الأوائل

ثانيا : أن هذه الأقسام ليست متساوية في الدرجة والدلالة ووجوب الأخذ بها. فنقدم الحديث ثم السنن العملية ثم الآثار.ثم أقوال الصحابة ثم أقوال التابعين ثم أقوال الفقهاء ..

ثالثا : أن من العلم والتمييز تسمية الأشياء بأسمائها. لا أن نظن كل قول بدأ من **(**عن فلان**)** نقول إن الذي بعده حديث رسول الله .

و-تبويب الفقهاء اجتهادات لا مسلمات:

إن دور الفقهاء والعلماء هو استخراج وتوضيح المعاني والمفاهيم الدقيقة من النصوص الشرعية. وهو ما يعرف بالاجتهاد.

والاجتهاد هو:**« استفراغ الوسع في النظر في الأحكام الشرعية. وهو واجب على الكفاية »**. وغاية المجتهد وراء هذا الجهد مساعدة الناس والخروج بهم من المشكلة والحيرة في الفهم، أو في التطبيق. والاجتهادات أحيانا تكون لظروف خاصة. ولزمان معين. ونحتاج إلى جهود العلماء واجتهاداتهم في الأمور الصّعبة والخفية التي لا يعلمها كثير من الناس، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [النساء : ٨٣].

وقد يظن غير متخصص وغير فقيه، أو مقلّد بغير فهم:

ـ أن نصا واحدا لا يحمل في طيّه إلاّ معنى واحد فقط لا غير **!..**

ـ وأن العناوين والتبويب للنصوص أمور قطعية لا يجوز النظر فيها **!** ولا يجوز تعديلها أو تغييرها أو الزيادة عليها ،لأنها أمور مقدسة **!**

إنّ اعتقاد مثل هذا الاعتقاد هو عين الغلط والضعف وفقد البصيرة. إن النصوص الشرعية تحمل أكثر من معنى. وأن العناوين اجتهادات بشرية، وفهم خاص للكاتب أو المؤلف. لذلك فإن الشعار الذي رفعه الإمام الجليل **(مسلم)** في صحيحه علي هذا الأثر : **«باب بيان أن لكل بلد رؤيتهم، وأنهم إذا رأوا الهلال ببلد لا يثبت حكمه لما بعد عنهم».**

ولن يغيب عن نباهة المتأمل أن هذا فهم خاص للإمام، وليس أمرا قطعيّا كما يتوهم البعض، أو جلّ الناس، أو القراء، ويعتقدون أن هذا أمر مسلّم به، لأنه كلام الرسول ﷺ.

ومن حق كلّ كاتب أن يعنون ويبوّب بحسب أجلى معنى يظهر له من النّص. وقد يأتي الآخر، ويرى معنى آخر غير هذا المعنى. وهو محّق. وعلي سبيل المثال. فالحديث المتفق عليه : الذي رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ، قال : **« إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار، وصفدت الشياطين». هذا الحديث أخرجه البخاري في باب : «هل يقال رمضان، أو شهر رمضان، ومن رأى كله واسعا» وأخرجه مسلم في باب : «فضل شهر رمضان».** النص واحد، ولكن كل واحد من الإمامين اختار أظهر معنى له، فيما بدا له من النص.وهنا يمكن القول: بأن العنوان الذي رفعه الإمام مسلم لهذا الحديث وتبعه في ذلك من تبعه من رواة الحديث بعده، ما هو إلا فهم الإمام مسلم فقط لا غير. والمشاكل التي تأتي الناس من أقوال الفقهاء والعلماء تأتي من ناحيتين:

<u>الناحية الأولي</u> : (باعتبار اجتهادات الفقيه مسلمات فقهية صالحة لكل زمان ومكان). وهذا غلو في غير معصوم، وصاحب هذا الاعتقاد دائما تمرّ به الأيام، وهو لا يشعر. وعلى سبيل المثال: فقول الشافعية: إن حدود المطلع أربعة وعشرون (٢٤) فرسخا. والفرسخ يساوى ٥٥٤٤ مترا. وعلى هذا الرأي على بعد كل ١٣٣ كلم، يجوز أن يختلف المسلمون في الصوم والإفطار في هذا الزمان، وهل هذا الرأي يمكن أن يكون مقبولا أمام الإنسان العاقل في وقتنا المعاصر ، عصر ثورة الاتصالات والمعلومات ! هل هذا يمكن أن يكون مقبولا عقلا وشرعا؟. مع أن هذه النظرية يمكن أن تكون صالحة حتى نهاية القرن الثامن عشر مسيحي لأن من ينحو هذا النحو إلى الآن فلا ينكر أن توجد في دولة مثل الجماهيرية العظمى عيدان أو ثلاث أعياد. لأن من الحدود الشرقية لليبيا إلى حدودها الغربية نقول فيها أربعة مطالع على الأقل. إذن فالمسلم الذي في حدود المطالع ، يمكن أن ينظر إلى أخيه المسلم وهو صائم ، والثاني يأكل ويشرب لأنهما ليسا في مطلع واحد . وهل يقول هذا إنسان عاقل في هذا العصر؟ وهل يقبل هذا مسلم يعرف دينه ويهتم به في هذا الوقت بالذات ؟

إذن ما هو الموقف الصحيح ؟

الموقف الصّحيح هو أن يقول المسلم : إن هذا الرأي كان صحيحا لما لم توجد وسائل الإعلام ووسائل الاتصال، لما كان الإنسان يعيش في زمن انقطاع المعلومات.

الناحية الثانية :(برؤية اجتهاداتهم المتعلقة بحل مشكلة ما بأنها مغالطات وأخطاء).لأن ما يصلح اليوم لم يكن يصلح بالأمس ، لأن ما يصلح في عصر الفضائيات ، وشبكة المعلومات ، وغيرها ، لا يمكن بحال من الأحوال أن يصلح لأهل القرون الوسطى ، أو حتى لأهل القرن الذي مضى

الموقف الصحيح :

هو أن كلام بعض الفقهاء في المطالع كان مقبولا بالأمس ، ولكن لم يعد له مكان أو وجود في وقتنا المعاصر ، لا عقلا ولا شرعا **!** ، والذي يريد أن يجعل هذه الاجتهادات كأساس للعمل اليوم ، هو الذي يجعلها أخطاء ومغالطات لمرور زمنها وظروفها. ولأن المعلومات المتعلقة بالفلك كان عرضها وشرحها للناس نوعا من الفتنة ، في الأيام الأولى من الدّعوة الإسلامية ، لعدم معرفة الناس بالعلوم الفلكية ، وبذلك يكون الحديث عنه نوعا من الحديث عن شيء لا يمكن شرحه إلاّ بالمحسوسات ، وبعلم الفلك الذي لم يكن معروفا في ذلك الوقت . لذلك فالنصوص الشرعية لم تحدد المطالع . وإنما أعطت قاعدة ثابتة يمكن لكل الناس الاعتماد عليها، وهي: « **لا تصوموا حتى تروه، ولا تفطروا حتى تروه (مسلم وغيره).**

الفرق بين السنة والشريعة والفقه

في الدّين أمور مختلفة ومتباينة، ويجب أن نسمي كل شيء باسمه. حتى لا يختلط الحابل بالنابل. ووضع في غير موضعه كثيرا ما يحدث الضجة والمشكلة في الأمة. ويدعو إلى خلاف لا طائل منه ولا فائدة فيه. فيكذب بعضنا بعضا، ويتحامل بضعنا على بعض جهلا بالحقيقة. ومن هذه الأمور التي يجب أن تكون واضحة في بصائر الناس ، هذه المصطلحات الثلاثة:

* **السنة:** مرادفة للفظ **(الهدي)**. وهي:**[مجموعة أقوال النبيّ وأفعاله وسلوكياته وصفاته وأخلاقه وتقاريره، فيما كان قبل وفاته]**. وهذا ما يعرف بالسنة في عرف الأصوليين والمحدثين. وأما الفهم والاستنباط والاجتهاد والرأي، فلا يدخل في عرف السنة . بل يدخل في عرف الشريعة . لأن السنة أخص من الشريعة ومن الفقه .

* **الشريعة: فالشريعة أو الشرعة، فهي:[ما سنّ تعالي من الدّين وأمر به كالصوم والصلاة والحج والزكاة وسائر أعمال البر. ويدخل في عمومها الأصول والفروع ، وجميع المقاصد الشرعية ، والمعاني الظاهرة والخفية ، والاستنباط والقياس والاجتهاد والرأي:** ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ **وقوله تعالى** ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾.

وما سميت الشريعة بذلك إلا لسعتها. ولا يشترط في الشرع أن يكون قد طبقه رسول الله عمليّا، بل كل ما أشار إليه القرآن أو السنة إذا ما قام به العبد ، أو فعله ، فقد فعل شرعا وشيئا جائزا. سواء من الواجبات أو الفروع أو الفضائل أو العلوم أو الفنون، فكلها داخلة تحت الشرع . لأن الشرع أوسع من السنة . فالسنن كلها داخلة تحت مضمون الشرع ، وليس العكس (أي ليس كل ما في الشرع يمكن أن يدعى سننا. وكل مضامين القرآن والحديث ومعانيهما الظاهرة والخفية ، يدخل تحت مضمون **(الشريعة)**. سواء كان الدخول دخولا أوليّا، مثل السنن الماضية الثابتة. أو كان الدخول دخولا إضافيّا(معنويّا) ، مثل الاستنباط والقياس والاجتهاد والرأي . لذلك نقول: هذا شيء معروف شرعا. وهذا أمر مقبول شرعا. وهذا يجوز أو لا يجوز شرعا لكون الشريعة واسعة. وكل ما يدخل في عموم القرآن والسنة ، فهو من شرع الله ومن دين المسلمين إلى يوم القيامة . وهو لا يدخل في جملة ما ليس من الدّين ، وإنما يدخل في جملة ما هو منه، وفي جملة ما عليه أمر الله ورسوله. كما في قوله :**« من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ »** (البخاري ومسلم وابن ماجه) ، وقوله :**« من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ »** (مسلم).

* **الفقه:** فهو من الفقه والفهم، ومن كل ما يستخرج من القرآن والحديث من المعاني الظاهرة والخفية.

وفي الاصطلاح: [علم يتناول دقائق القرآن والحديث، بقصد الفهم واستخراج الأحكام لما يعين المسلم من حل مشاكل دينه (العبادات)، ودنياه (المعاملات). وبذلك فهو مرادف للفظ (الشريعة). ومن يقوم به فهو الفقيه، أو الفقهاء بالجمع. وكما يدعى علم الفقه بـ[علم الفروع]. والفقه مرادف للشريعة في سعتها وفي معناها. لذلك فالأولى أن نقول: المذاهب الفقهية الشرعية ، لا أن نقول: المذاهب الفقهية السنية. لأن الفقه ليس مشروطا فيه أن لا يخرج من السنة المألوفة، إذن لا يسمى فقها بل يدعى سنة فقط . وهذه التفاصيل يعرفها من يعرفها من المختصين في هذا الميدان. والفقه لا يتعلّم ولا يورث ، بل موهبة من الله تعالى. وكم من عالم غير فقيه ، كما قال :« رب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من أفقه منه ؟ » (الترمذي) . ولو كان الفقه علما لما كان الإنسان أفقه من معلمه . ولذلك ردّ الإمام عليّ عليه السلام ، هل خصكم رسول الله بشيء من العلم دون بقية الصحابة؟ فقال: لا ، والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، إلا فهما يؤتيه الله عبدا في كتابه . وما في هذه الصحيفة ، وكان فيها العقل ، وهو الديات وفكاك الأسير ، وأن لا يقتل مسلم بكافر» (تفسير ابن القيم ص: ٤١).وفي كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري، رضي الله عنهما :« والفهم فيما أدلى إليك » (المصدر السابق/٤١). وقال ابن القيم :« فالفهم نعمة من الله على عبده ، ونور يقذفه في قلبه ، ويدرك مالا يدرك غيره ولا يعرفه ، مع استوائهما في حفظه ، وفهم أصل معناه . والفهم عن الله ورسوله عنوان الصديقية، ومنشور الولاية النبوية، وفيه تفاوت مراتب العلماء، حتى يعدّ ألف بواحد..» (المصدر السابق/٤١).

والعلم الذي يأخذه الناس من العلماء، توجيهات وهدايات في الطريق، وعوامل مساعدة فقط لا غير. لذلك نجد أن العباقرة والأذكياء والمشهورون في العلم ما يستفيدونه من المعلم المباشر لا يزيد عن عشرين في المائة من أصل علومهم. والباقي كله نتيجة الجهد وتوفيق الله تعالى وموهبته.وجميع العلوم الشرعية موجودة في القرآن وفي الحديث، علم ذلك من علم، وجهل من جهل. : ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣].وقوله تعالى :﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].ولكن سوء فهم بعض المسلمين أدى إلى ما أدى من سوء التفاهم بينهم. كما يشير إلى هذا الواقع المؤلم العلامة الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق في كتابه: السلفيون والأئمة الأربعة ص: (٢١ ـ ٢٢) تحت عنوان:[**الثابت والمتغير في الدّين]** يقول: **« أصاب المسلمين ضرر عظيم من فهم بعضهم الخاطئ، لقوله تعالى:** ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ **[المائدة :٣]. هذه الآية من القرآن وما يشهد لمعناها من الحديث، كقوله ﷺ:« من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ» وحكموا على كل إضافة في الدّين بالبطلان والردّ .وبذلك عطلوا بابا من أعظم أبواب الإسلام، وهو باب الاجتهاد التطبيقيّ، ووقفوا جامدين أمام مشكلات التطبيق وتغير الأحوال. وقام بإزاء هؤلاء طائفة أخرى زعموا أن كل قول في الدّين صدر عن إمام أو عالم، فهو حق لأنه من الدّين،وقد يكون مسندا إلى الدّليل، وبذلك أصبح الدّين عند أولئك واسع سعة كل الفتاوى والآراء والأقوال التي صدرت عن مجتهدين. ووسّع هؤلاء الاجتهاد أيضا حتى شمل العقائد والعبادات والأخلاق، وبذلك صار الدّين عند هؤلاء مسخا مشوها لا تناسق فيه بأي وجه من الوجوه، بل في قضية رأيان وثلاثة، وعند هؤلاء كل هذه الأقوال صواب يجوز للمسلم أن يعمل بها. وبين الفئة الأولى التي وقفت عند النصوص فقط بلا فهم ولا وعي لمتطلبات تطبيقها. والتي جعلت أبواب الدّين كلها بابا واحدا لا يجوز الزيادة فيه والاجتهاد. وبين الفئة الثانية التي جعلت كل رأي صدر عن عالم ما، يجوز العمل به. أقول: بين هاتين الفئتين قامت المعارك الكلامية والمناقشات، واستخدمت الآيات والأحاديث وأولت تأويلا بعيدا، وشغل المسلمون وما زالوا منشغلين ..وقد غاب عن هؤلاء وهؤلاء بعض القواعد والموازين التي تضع الحق في نصابه. وهذه القواعد تتلخص في وجوب التفريق بين الثابت والمتغير من أمور الدّين .**

إن مصدر مثل هذه الأخطاء الكثيرة في الأمة هو عدم التمييز بين السنة والشريعة والفقه. وأن الشريعة والفقه هما أوسع من السنة. وأننا يجب أن نسمي الأشياء بأسمائها. وأن كل ما في نصوص الكتاب والحديث من المعاني من الأمور المقبولة والصحيحة شرعا، حتى وإن لم يطبقها الرسول في حياته عمليّا.

وأي خطأ أكبر من أن يقول المرء : الدّين في جانب، والعلم في جانب آخر. وأن العلم لا يعين الدّين، بل يعاديه ويخالفه. وأنه لا يجوز الجمع بين الظواهر الطبيعية وبين الدّلالات العلمية، لمعرفة ظروف الحياة المصاحبة للعبادات الشرعية.مع بقاء العبادات نفسها هي هي فالظروف والوسائل هي التي تتغيّر، ولكن العبادات تبقى كما كانت هي لا تتغيّر. فنفي إعمال وسائل العلم الحديثة كالمراصد الجوية، والحسابات الفلكية.، كل ذلك يعود إلى عدم إعمال نصوص الشرع وإلى تعطيل الشريعة والفقه والاجتهاد. وحصر الأمور بتطبيقات قديمة لها علاقة بظروف الحياة الشاقة والصعبة وإلى نقص التقدم في العلم والمعرفة.

الموقف الصوفي من مبحث العلم والدين والتقدم، (تجاوز العقل أم إلغاء العقل؟):

للإجابة على هذا السؤال أنقل حوار مع المسلم الفرنسي المتصوف (إريك يونس جوفروا). أستاذ الحضارة الإسلامية بجامعة ستراسبورج الفرنسية، هو واحد من أعلام الفكر الإسلامي الفرنسي،ومن رواد حركة التجديد الفكري في البلد، بما أسس لتيار يمثل التعددية الثقافية ويقبل الإسلام كجزء مكون من التركيبة الحضارية للدولة الوطنية الفرنسية. وهو كفرنسي مسلم صوفي يقدم لنموذج على درجة من الدلالة عن إمكانية تطبيق الإسلام في كل زمان ومكان وصلاحيته لكافة البشر، خاصة وأنه أختار طريقه للإسلام وفق قناعة عقلانية وروحية لدُنية يسميها الفطرة التي فطر الإنسان عليها.

لا توجد في الإسلام سلطة عليا تعرّف العقيدة وتحدّد تفسيرها بطريقة نهائية،وفي هذا الحوار تناول معه المحاور مفهومه للعقل والكشف والمصالحة الممكنة بين العلم والدين في سياق المبحث المعرفي الإسلامي المعاصر.

في القرن التّاسع عشر شكل العقل حجر الزاوية لنموذج المعرفة العلميّة الغربيّة، كما كانت العلموية إحدى نقاط الذروة لما سمي بالعقلانيّة. والتي كانت ترى أن البشر والعالم والطّبيعة ليست، في نهاية المطاف، إلا حقائق مادية بحتة، بما يجعل منها أشياء قابلة للفهم العلمي التام. لقد تخلى البحث العلمي اليوم، عن هذا المفهوم الاختزالي؛ وصار الكثير من الباحثين؛ مثل الفيزيائي برنارد ديسباني أتيتبنون، أو عالم فيزياء الفلك الفرنسي المسلم عبد الحق برينو كيدردوني، يتبنون بالأحرى التمييز بين الحقيقة الظاهرية (التي يمكن أن تفهم بواسطة العقلانية المنطقية للعلم) والحقيقة المستورة (التي تخرج عن نطاق العقلانيّة تماما). فكيف طُرِحَتْ مسألة استخدام العقل في سياق الفكر الإسلامي في القرون الوسطى، ومَا هي مقاربات **الحساسيات** الصوفية بشكل خاص في هذا الشأن؟

إيريك يونس جوفروا: غالبا ما أكّد المسلمون الصوفيون على عجز العقل البشري، فهم يسعدون بذكر أن المصطلح العربيّ **(عقل)** يعني اصطلاحا القيد والربط. (غقل البعير أي ربطه)، وكان أحد مشايخ الشام في القرن السادس عشر قد كتب متلاعبا بالكلمات **(إن الفقهاء معقولون بعقولهم)** أي مربوطون بعقولهم. بالنسبة للمتصوفة، لا يتعلق الأمر برفض أداة العقل هذه تماما، ولكن بحصرها في مكانة نسبية ومحدودة وذلك مقارنة بهذا المطلق الذي يتخذ المسلم من الوصول إلى أنواره هدفاً له. وهم بذلك، يتميزون عن أهل الظاهر، ويلومونهم على تحديد نطاق مصطلح (العلم) بالمجالين التّقليديين: **(المعقول)** (ناتج التفكير المنطقي) و**(المنقول)** (المدوّنة المتوارثة جيلا بعد جيل). ويشدد الصوفية، بشكل خاص،على كون المعرفة التي يعتمدها أهل المتكلمين تعتمد بالأساس على رؤية بشرية، بل مغرقة في البشرية، ويمثل علم الكلام العقلاني عندهم مجرد معرفة تستند إلى الظن وهو نقيض اليقين الذي يتيحه التأمل. إن لغز الوحدانية الإلهية بالنسبة للصوفية لا يوصف. فليس من مقدرة الإنسان الحديث عن الذات الإلهية لأنّ التصور الذي يحمله عنها دون الواقع بالضرورة. وقد ذم المتصوف الشاذلي (علي وفاء) (دفين سفح جبل المقطم بمصر المحروسة)، الفقهاء بالعبارات التالية: **(أيّها الفقيه، إنك بالمعقول غافل عن الحقيقة، ولا تنجو من المعنى الظاهر للمنقول)**. وقد طوّر متصوّفة المدرسة البغدادية منذ القرن الثالث الهجري – التاسع الميلادي، التوحيد الصوفي، الذي سماه الجنيد **(توحيد الصفوة الروحية)**. والذي أسس لتيار بديل عن البحث الكلامي، لأن مداه ملهم له: إن عقيدة الوحدة الإلهية، أو التوحيد الظاهري، تستحيل مع المسار التلقيني إلى تحقق فعلي لهذه الوحدانية. ألم يؤكد الشيخ الدمشقي تلميذ ابن عربي، القطب عبد الغني النابلسي على استحالة معرفة الوجود، بمعنى الله، بالاعتماد على النظر وحده؟ من وجهة النظر هذه، فإن الصوفيين ينتمون إلى المنظومة السنية، التي ترفض الفلسفة الإغريقيّة، لأنها تعطي الأفضلية للعقل على الوحي: ويتفق أهل الظاهر وأهل الباطن من السنّة على هذه النّقطة. إن مدرسة الاعتزال التي أنكرت كرامات الأولياء بسبب فرضيّاتها المنطقية، هي أيضا مستهدفة. فأبو الحسن الشاذلي عندما يؤكد أن أهل الجدال - (هؤلاء المغرمون بالاستدلال والمجادلة)- يمثلون أشد المعارضين للمتصوفة وللولاية، إنما يقصد علماء الكلام، وبالتحديد المعتزلة. كما أكد الصوفيون أن بعض المسائل الكلامية لا يمكنحلّها إلا عن طريق الكشف الروحي كنسبة الفعل الإنساني إلى الله أو إلى الإنسان (كسب الأفعال). كما نجد أمثلة عديدة أخرى في المصادر عن أجوبة حول مسائل كلامية بواسطة الإلهام وليس الاستدلال.

ما يطرحه هذا التيار الصوفي في الإسلام، هو إذن تجاوز العقل لا إلغاؤه؟.

إيريك يونس جوفروا: إن مبحث ما وراء العقل، الذي يقول به المتصوفة هو آلية عميقة تساعد الفقهاء أنفسهم في توسيع نطاق رؤيتهم المحدودة فيإطار نمط تفكير تحكمه الحسابية الصارمة. (فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المُحررة، فقد ضيّق رحمة الله الواسعة). كما أكد الغزالي. بحيث نستنتج أن تجاوز العقل الاستدلالي هو جزء من المناهج التي اعتاد المتصوفة على اعتمادها. وبالنسبة لعماد الدين الواسِطي تلميذ ابن تيمية فإن هذا التجاوز يمثل مقدمة ضرورية لكل طريقة في التتلمذ. ويقدم المتصوفة لمعارفهم، وهي أبعد من أن تكون علما تجريبيا، على أنها علم باطني تلقيني له قواعده وطرقه. غير أننا نحتاج للخوض في هذا المعنى لتحديد مصطلح (العلم) الذي يتبناه علماء الظاهر. فالمتصوفة يميّزون بين العلم الكسبي، الذي يطلق عليه إلى الآن (العلم النظري)، والعلم الوهبي. حيث يتخذ ابن خلدون على سبيل المثال، هاذين النمطين من فهم العالم معيارا أساسيا في مقاربته للصوفية. فالمتصوفة - كما يقول - هم ورثة الخضر؛ والدخول إلى علوم التصوف (العلم اللدني والعلم الوهبي) يمر عبر كشف المعاني وعبر الإلهام. ولا يفعل ابن خلدون هنا أكثر من تقديم النظرية العامة للتصوّف، لكن وجبت الإشارة إلى أنه يأتي بعنصر مميز تبناه فيما بعد العديد من المؤلفين ممن جاءوا بعده. ذلك أنه أقرّ بالكشف الذي حصل عليه المتصوفة الأوائل، وهي منّة ظرفية ناتجة عن عقيدة صافية (استقامة)، ولكنه اعتبر المجهود المنهجي لمدرسة «وحدة الوجود» لابن عربي غير شرعي، ذلك المجهود الرامي لـ«كشف الحجاب» من أجل الوصول إلى الحقائق الإلهية. وبوضعه الكشف الكامل الصفاء والتلقائية في مقابل «مجاهدات الكشف أو المكاشفة»، فإن مؤلف» شفاء السائل »يوظف النظرية السهلة حول استقامة المتصوفة القدامى في مقابل شرود « المحدثين»، كابن عربي ونظرائه.

وكيف يتم تحقق هذا الوعي إذا ما توقف دور العقل؟

إيريك يونس جيوفروا: إن الطرائق المختلفة المتجاوزة للعقل لدى المتصوفة- كشف، إلهام، يقين - ظلت نظرية بالنسبة لنا إلى الآن. دعونا نتحدث الآن باختصار عن وجهين من وجوه التصوف الإسلامي، كان «مبحث تجاوز العقل» في سياقهما مفتاحاً للوعي اللدني:

الأول هو الشيخ الأميّ، والذي يشتق اسمه من كلمة (الأم)، وهو يُنْسَب إلى ما يُولد عليه أي على ما وَلَدَته أُمُّهُ عليه. وحالة الطفولة التي تميّزه تأتي بذاتها من بقائه على الفطرة، بمعنى (ما فَطَرَ الله عليه الخلقَ من المعرفة به) كما يقول ابن منظور في (لسان العرب). فحالة الطفولة هذه تتيح للأميّ علما لا يصل إليه المتعلمون، أو على الأقل هؤلاء الذين لا يستطيعون فكاكا من علمهم المكتسب. ويتجسد النموذج الأمثل لذلك في النبي الأمي: «المُتقبّل البكر للوحي» الذي، وإن لم يكن قد أخذ الكتابة بحسب الاصطلاح والتعلم من الناس ، فقد تعلّمها بفضلٍ من «الفتح الرباني» الذي وهب له.

ونحن هنا نعيد استعمال مصطلحات الوليّ المغربي الكبير عبد العزيز الدباغ، كما رواها عنه مريده أحمد بن مبارك في كتابه الشهير (الإبريز).

فـ «المتمتّع بعلم فطري» قد لا يجيد بالفعل القراءة والكتابة، ولكنه قبل كل شيء صاحب (قلب لم يدنسه النظر الفكري) وهو لذلك مهيأ لتلقي الكشف الروحي الذي نتحدث عنه. وإذا كان الشيخ الأمّي يجهل أحيانا المواضعات البشرية في مادة الكتابة، فلأنه يعبّ مباشرة من مصدر الكتابة: اللوح المحفوظ الذي كتب فيه الله منذ الأزل مصير خلقه جميعا، والذي يدعى لهذه الغاية أم «الكتاب.» فالبسطامي يؤكد أنه هو هذا اللوح، كما أن علي الخواص، بما هو نموذج للشيخ الأميّ في مصر عصر المماليك، يستمد إلهاماته من نفس هذا اللوح.

وأن يكون الزاهد الأمي جاهلا تماما، أو أن يكتب تحت وقع الإلهام، فإن بريق تعبيره نادرا ما ينصهر ضمن القواعد الاعتيادية للغة البشرية .فلغته المكتوبة والمنطوقة غالبا ما تكون مبهمة عند أهل الدنيا، سواء في محتواها أوفي صياغتها. ويظهر علماء الظاهر دهشتهم أمام هذه الظواهر، ولكن تبرّمهم الواضح لايخفي الانبهار الذي يتركه هؤلاء الأميين عليهم.

والثاني هو المجذوب، الذي يمثل نموذجا آخر، ذا أهمية قصوى، من نماذج ما فوق العقلانية لدى الصوفية. فالمجذوب يشترك مع الأمّي في العديد من الصفات، كحالة الطفولة، والولوج إلى عالم اللغة الأم، والنزوع الطبيعي الكبير إلى الكشف. وهو يُدْعَى أيضا «مجنون الله» لأن الله سلب منه عقله وجذبه، بغلظة في أغلب الأحيان. ومن هنا جاء الغموض الذي يسيطر في الثقافة الإسلامية على التفريق بين (المجنون) «ومجنون الله» (المجذوب). ولذلك السبب اشتمل عنوان كتاب (عقلاء المجانين)لأبي القاسم النيسابوري، على تناقض مثير للانتباه. وبالفعل فإن هذا الكتاب يدفعنا إلى الغوص في محيط الجنون، ولكن المجانين المعنيين هنا يتمتّعون بتجربة خصوصية للعقل، الذي ندعوه حسب العادة الإدراك أو المنطق السليم. ولكن أليس من الأفضل استعمال «مصطلح الروح» هنا، ذلك لأن الكثير من الروحانيين الكبار مذكورون ضمن كتاب النيسابوري. وفي حين يُقَدَمُ أويس القرني، على أنه أول «مجانين الله» في الإسلام،فإن الشبلي يرد في هذا الكتاب مادحًا جنونه لتلاميذه (ذوي العقل السليم الأصحّاء). كما نرى أيضا في نفس الكتاب أبا يزيد البسطامي معترفا بدرجات الجنون الثلاث التي كان عليه اجتيازها، والتي تتطابق في الحقيقة مع المراحل النهائية الخاصة بطريق التتلمذ. وما يميّز المجذوب هو لامبالاته بالتقاليد والأعراف الدينية والاجتماعية. وقد أكدت جميع كتب التراجم أن هذه الشخصية تمتلك غرابة تبدو جليّة في المظهر الجسدي. فالجذب ينتج قطيعة مع حالة الوعي العادي، وبالتالي مع الأعراف الثقافية. كثيرا ما يتعرى الشخص المعني كليا، أو جزئيا بتغطية عورته. إن هذا العري يعبر عن الفطرة، تلك البراءة الفردوسية التي ذكرناها سابقا في خصوص الأمي.

وبصفة عامة، فإن المجذوب لا يعير أي انتباه إلى ملابسه، ويرتدي نفس اللباس صيف شتاء، حتى تبلى! . وخلافا لأنماط أخرى من المتصوّفة، فإن المجذوب في كثيرمن الأحيان ينتهك القانون متمتعا ببعض حصانة. فقد اعتبره العلماء فعلا غير مكلف شرعياً -على غرار الأطفال أو المجانين -، بل ويعمدون هم أنفسهم إلى زيارته، والأخذ عن فمه ببعض الحكم. إن التأمل في العالم المستور الذي ينغمس فيه المجذوب يجعل من هذا «الأخير مبصرا» كما يعبر الشاعر الفرنسي الكبير «ريمبو». لذلك، فإن أحد «مجانين الله» الذين قابله «ابن عربي» اتهم حشدا كان يستمع إليه بالعمى، لأن الحشد كان متأكدا أن ما يمسك بسقف الجامع الذي يجلسون فيه مجموعة الأعمدة، بينما يرى هو مكان هذه الأعمدة رجالا يتضرعون إلى الله. إن عالم الغيب، لكونه غير مرئي لعموم أهل الفناء، هو أيضا المجهول، الغائب عن المعرفة بحسب المعنى الحرفي، الغائب عن وعي الناس.

وكيف تقابل قوانين الشريعة العقلانية هذا الخيار الممكن لتجاوز العقل؟

إيريك يونس جيوفروا: إن قبول المتصوفة بتأويل حّي للشريعة ولّد خشية الفقهاء وخوفهم من حصول بعض التجاوزات. ويصبح تهديد هذا الخطر أكبر عندهم متى ادعى هؤلاء المتصوفة ممارسة الاجتهاد، اعتمادا على الكشف لا على الاستدلال،والذي يجعلونه في مرتبة اليقين الذي توفّره البصيرة، متجاوزا بذلك ظنون الفقهاء.

واستخدام مصطلح الظن ذو أهمية كبيرة، خاصة إذا ما عدنا به للاستعمال الافتراضي والسلبي كما هو وارد في القرآن: فاستنتاجات الفقهاء غير اليقينية تحتاج إذا لأنْ نقيسها بمقياس الكشف، المعيار الأسمى في تأويل الشريعة.ويشير السيوطي إلى أن «أهل الرسوم» عاجزون عن تقدير الكشف، لأن مضانّهم مختلفة تماما عن مثيلتها لدى المتصوفة؛ إنهم فقراء إزاء كل ما خرج عن علمهم المكتسب. نفهم إذا موقف عديد الفقهاء والمتكلمين من أهل الظاهر الذين رأوا في تلك الممارسة العقلية للاجتهاد -مفهوماً ارتبط عادة بمجال العقل فحسب- بدعة محضة.

ولكن يجب أن نعرف أنه لا توجد في الإسلام سلطة عليا،تعرّف العقيدة وتحدد تفسيرها بطريقة نهائية. ولهذا السبب تتعايش عديد الفرق في إطار الإسلام. صحيح إن التعصب الديني سيطر في أحيان كثيرة على العلاقات بين هذه الفرق،ولكن نلاحظ أن أولئك الذين كانوا يرفعون شعار التكفير بسهولة، لم يكونوا من كبار العلماء. بل هؤلاء قد حرصوا على إدراج مختلف المدارس الكلامية ضمن النطاق الإسلامي لا استبعادها منه. كما أنهم كانوا ينبهون ضد مخاطر عقلية (محاكم التفتيش)، التي انتشرت أحيانا، في العصر الإسلامي الوسيط. كانت المدرسة الشافعية، بخصوص هذه النقطة، مثالا يحتذى به. وكان الغزالي، بصفته أحد ممثلي هذه المدرسة الأكثر شهرة،فقد كان يؤكد: «أمْسِكْ لسانك عن أهل القبلة» أي أولئك الذين يؤدون فريضة الصلاة في الإسلام.

السؤال الأخير يخص المفهوم الإسلامي للعالم والطبيعة. وهل يمكن التفكير على الوجود بمنطق عقلاني علمي وروحاني في نفس الوقت؟

إيريك يونس جيوفروا: بالنسبة للميتافيزيقا الإسلامية، لا وجود مطلق إلا لله؛ فالمخلوقات لا تتمتع إلا بوجود مؤقت، مستمد من وجود الله. وخلف الطبيعة المتغيّرة للعالم تكمن حقيقة دائمة مفارقة لها؛ لذلك يسمي المسلمون الله بالحق، الحق المتفرّد. والفن الإسلامي، بإعادة رسمه إلى ما لانهاية له من الأشكال الهاربة، يطرح وحدة أصولها جميعا. لقد أدرك علماء الإسلام من السلف بدورهم، ومنذ الوهلة الأولى، هذه الوحدة المعقدة للكون. ولاحظوا في مجالات تطبيق متعددة التبعية المتبادلة بين كل ما هو موجود. وقد أحالهم تفكيرهم في الآيات الإلهية المتعددة الحاضرة في الخلق، إلى التأمل في المتفرد(الواحد). وبعيدا عن المعرفة الحديثة التي جزّأت الوعي كما جزّأت ميادين البحث، فقد كان هؤلاء العلماء يقبضون على الوحدة الأساسية للعلوم، لذلك كانوا في نفس الوقت شعراء ورياضيين وعلماء فلك وأطباء، إلى آخره.

وكانوا يعلمون أيضا أن العلم لا بد أن يتبع الحكمة،وهو ما أهمله العلم الغربي بشكل مأساوي. إن علم البيئة الإسلامي على سبيل المثال؛مبني على قاعدة قرآنية أساسية: صحيح أن الكائن البشري له الأولوية على بقية المخلوقات الأخرى، ولكن باعتباره «خليفة الله في الأرض» فهو مسؤول عن عوالم الحيوان والنبات والمعادن الخاضعة له. لهذا السبب، فسيحاسب عن إدارته لكوكب الأرض. ألم يؤكد النبي » أن الخلق عيال الله »؟.

ونحن نعتقد أن الإسلام، بقدرته على التآلف والتكامل،يمكن أن يساعد إنسان العصر الحديث، التائه أكثر من أي وقت مضى في عالم المظاهر والتعدد، على استعادة وعيه التوحيدي، أي على استعادة توازنه. إن الوجود المادي والنفسي والروحي للإنسان متناسق، لا يهتزّ بمختلف موجات التجلّي، وفق إرتكازه داخليا إلى الاعتصام بالوحدة الإلهية: التي تشكل نقطة الملاذ التي يتم اللجوء إليها. وبنفس الكيفية فإن الإسلام التاريخي الذي توحّد حول محور التوحيد هذا، قد استطاع أن يكيّف نفسه دائما مع مختلف السياقات الزمكانية دون أن يفقد شيئا من ماهيّته. إن حصر الإسلام في ثقافة أو نكهة أو أسلوب محدد واحد، لممّا يقيّد من عظمة القدرة الإلهية.

التوحيد الخالص و الدين القيم في القرآن الكريم:

إن ظاهرة التنوع الديني واحدة من أكبر الإثارات المطروحة أمام الفكر الإنساني المعاصر، خاصة في وجود مجتمعات تتعايش في أوساطها قيم وتعاليم لأديان مختلفة ومتباينة وما تمليه تلك المعايشة من ضرورة توسيع رقعة العلاقات الإجتماعية والإنسانية التي أضحت أكثر إتساعاً بفعل ما أحدثته وتحدثه ثورة الاتصالات ووفرة المعلومات التي فرضت سببا في منح البحث عن المفردتين الحيويتين ((التوحيد و الشرك))، أهمية قصوى مطلوبة للوصول إلي الدين القيم المقبول نقلا وعقلاً والجدير بالهيمنة والقيامة علي جميع الأديان والمعتقدات.

ومن خلال ذلك تظهر الإجابة علي أسئلة غاية في الأهمية في سبيل الحقيقة الموصلة إلي الحق للوقوف عليه والتواصي به وأهم تلك الأسئلة التي سنبحث عن إجاباتها من الذكر الحكيم هي:-

*هل واحدة فقط من العقائد السائدة حاليا هي الأجدر من غيرها بالتصديق والاعتقاد؟ ، وأنها تمثل التوحيد الخالص و الدين القيم ؟ .

*هل الأديان الأخرى كلها باطلة أو منسوخة ؟ .

*هل الأديان الأخرى متبنّيات بشرية غير حقيقية ولا علاقة لها بالوحي والإلهام الإلهيين ؟ .

*كيف السبيل لفهم أفضل و تقدير أرجح لظاهرة التنوع الديني علي ضوء التوحيد الخالص و الدين القيم ؟ .

*هل يمكن رؤية نور الحقيقة في جميع الأديان السائدة واعتبارها دون استثناء تجليا للتوحيد الخالص ؟ .

***ما هو المفهوم الصحيح للتوحيد و الشرك ؟ .**

إن هذه الأسئلة المهمة و الشائكة و المربكة هي الإرث الطبيعي لإشكالية التعدد الديني، بل والتعدد الطائفي داخل الدين الواحد، المطروحة في عالم اليوم، ولا سبيل لولوج بؤرة الحقيقة وصولا للحق والعمل علي التواصي به إلا بالإجابة عليها، وفك رموزها وصولا إلي التوحيد الخالص كما أراده الله، وليس كما يظنه العقل البشري تحت تأثير الفروق الاجتماعية والبيئية التاريخية والجغرافية، وليتضح علي ضوئها التوحيد الخالص والدين القيم حتى وإن تعددت السبل الموصلة إليه، ويتضح الشرك حتي وإن توحدت مناهجه.

أولا: من هم الموحدون الخلص الموعودون بالجنة؟

إذا كان وارثوا دين أو مذهب واحد محدد بعينه هم وحدهم الذين يشملهم الخلاص وتعمهم المغفرة، فأين سيكون موضوع الرحمة الإلهية، وكيف نفهم الهداية الربانية لبني آدم ؟، ومن ناحية أخري، إذا كانت فكرة المغفرة محتملة لجميع وارثي الديانات علي اختلاف مللهم ونحلهم وطوائفهم ومعتقداتهم علي حد سواء، فكيف تكون المغفرة لكل هؤلاء المختلفين في الرؤى ووجهات النظر والاعتقادات والقناعات ؟، ويدعي أغلبهم أنهم وحدهم دون غيرهم الفئة الناجية الموعودة بالجنة.

للإجابة علي ذلك نقرأ هذا النص من الذكر الحكيم: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [البقرة :١١١-١١٣].

لن يغيب عن نباهة المتأمل الباحث، دقة هذا التصوير للجدل الذي كان قائما والذي يتردد صداه لما هو سائد في وقتنا المعاصر. فاتباع الديانات الإبراهيمية من أهل الكتاب الذي يتلونه دون فهم، والذين لا كتب لهم تعلمهم، يدعي كل منهم أنه وحده علي الحق دون غيره، والله حتما سيحكم بينهم يوم القيامة، والأهم أن الآيات البينات يوضحن أن ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾، وبذلك يكون الموعودون بالخلاص والمغفرة والذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون هم ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ ، ويأمر الله سبحانه وتعالى آخر رسله عليهم الصلاة والسلام أن يصدح بالأتي ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام :١٩] ، فهذه الآيات تأمر الرسول ﷺ بأن ينذر أهل الشرك وأن يتبرأ منهم و يلتزم الإقرار الكامل لله بالوحدانية وهذا يسري علي معاصريه وكل من بلغته الرسالة ﴿وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ ، وفي آية أخرى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام :١٤]، ومن كل ذلك يتضح جليا أن الله يأمر عباده بالتوحيد الخالص المناقض لكل أنواع الشرك، والالتزام بالدين القيم الذي لا يكون إلا الإسلام، و يقولها صراحة: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥].

إذن الإسلام هو الإقرار الخالص لله بالوحدانية ونفي الشرك عنه نفيا مطلقا والبراء من المشركين. فمتى بدأت دعوة الإسلام هذه ؟، وهل الأصل في الأديان التوحيد أم التعدد ؟.

ثانيا : الإسلام و الرسالات السماوية:

لقد عرفنا أن من وعدهم الله بالخلاص والمغفرة والذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون هم ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ ، وهذا التسليم ينطوي علي إقرار لله بالوحدانية ونفي كل شريك عنه . وعرف ذلك **بالإسلام** الذي لن يقبل الله دينا غيره وبالمتابعة يتضح ما يلي:-

*يقول عز وجل: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٨-١٩]. فهنا الله هو الذي شهد أنه لا إله إلا هو، وعرف ذلك الملائكة بالمعاينة، ووصل إلي هذه الحقيقة أولوا العلم بالبحث والدراسة والتعلم والتدبر في آيات الله، ومن هنا نعلم أن الإسلام قديم غير حادث، لأن الله القديم قد شهد به وكان الدين عنده الإسلام، وأن إسلام الوجه لله وحده حقيقة قديمة سبقت خلق آدم نفسه، بل وسبقت وجود كل المخلوقات الذين ما خلقوا إلا لمعرفة هذه الحقيقة والتسليم المطلق بها، ليكون التوحيد الخالص لله في الخلق من العدم، ورعاية ما خلق، وتحديد مآلاته ومجازاته، ثوابا وعقابا.

هذه الحقيقة عرفها آدم معرفة معاينة، وعاش حقيقتها عندما كان في أحسن تقويم، لكن آفة النسيان التي جبل عليها، جعلت ذريته تنسي ذكر الله مع تداعي الدهور، فارتدت إلى أسفل السافلين، ولذلك، ورحمة بهم، كان الذكر والتذكير بالرسالات المتعاقبة، لمكافحة آفة النسيان تلك، وإنقاذ الإنسان المشتق اسمه من النسيان من ظلماتها وظلمها، وكانت الوصية الأساسية لكل رسول ونبي، من آدم إلي محمد عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين لا تخرج عن التذكير بحقيقة التوحيد، وكان نوح أول المذكرين من الرسل أولي العزم: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٧١-٧٢].

وبعد الطوفان العظيم أصبح القائلين بالتوحيد يسمون بالمسلمين ابتداء من سيدنا إبراهيم عليه السلام ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [الحج:٧٨]، بل إنه أوصي بها ذريته إلى أبد الآبدين ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة :١٣٢]

وكان الاقتداء بتلك الوصية ونقلها أهم عمل يحرص عليه كل تقي ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة :١٣٣].

وكذلك كان أتباع موسي عليه السلام يؤكدون إسلامهم ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس:٨٤]، وقالها السحرة تحت ضغط التهديد الفرعوني بعد أن رأوا برهان ربهم ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف :١٢٦]، بل أدركها فرعون نفسه بعد فوات الأوان ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس:٩٠] ، وقالها الحواريون لعيسى عليه السلام ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٥٢]، ومن هذه المتابعة يتضح أنه لم يكن هناك أديان متعددة ولا علاقة لتعدد الثقافات وتعاقب الحقب التاريخية بالموضوع، بل هو دين واحد عرفه الإنسان وقالت به جميع الرسالات وهو الإقرار المطلق لله بالوحدانية. إلا أن آفة النسيان هي التي جعلت البشرية تتنكب جادة الصواب، وتنحرف عن الصراط المستقيم انقياداً لمؤثرات (النفس والهوى و الشيطان)، أعداء الإنسان منذ الأزل وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لولا أن يتداركه الرؤوف الرحيم فيذكره بالرسالات المتعاقبة (الذكر)، علي فترات من الزمن. ومن ذلك نعلم أن الرسالات السماوية الموحي بها إلي الأنبياء كلها تسمى (الإسلام)، بالمعنى العام للفظة، أي التسليم الكامل لأوامر الله الذي لا يعبد على علّة، وتكون في معناها الخاص هي القراءة الأخيرة للرسالة الخاتمة التي أوحي بها إلي النبي محمد صلي الله عليه وآله وسلم، وما بين تعددية العام وفردانية الخاص، تكون المفارقات لتبرز الدعوة الإسلامية الخاتمة دعوة صريحة لوحدة الاعتقاد والإيمان.

يقول سبحانه و تعالي في الذكر الحكيم ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى:١١]، و من هنا فإن التوحيد الخالص لا يكون إلا بالإيمان بجميع الأنبياء والرسل عليهم السلام والكتب الإلهية، وأن أي محاولة لقبول عدد من الأنبياء عليهم السلام واستبعاد آخرين، لا سيما صاحب الرسالة الخاتمة محمد صلي الله عليه وآله وسلم، بدعوى أن ذلك لا يؤثر شيئا ما دامت جميع الأديان تؤكد علي نفس الهدف وتقول نفس المضمون، فكرة تعجز عن الاستجابة لنداء الله المقدس ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾ [النساء:١٥٠-١٥١].

ومن هنا يكون الإقرار الصريح بفساد القراءة للتعددية المختزلة، لأن الإسلام بالمعني العام يطرح نفسه من خلال القراءة الخاصة أمام سؤال التنوع الديني، ويدعوا إلي ظهور ((الإسلام)) كأصل قديم للتوحيد المطلق الحق، علي جميع الأديان، ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣٣]، ويكون النداء المقدس الذي جاء به آخر رسل الله المختارين محمد صلي الله عليه وآله وسلم متمما لجميع الأديان والسبل الإلهية السابقة، يمتد ليشمل البشرية كلها ويتسع لها ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ:٢٨]. ويؤكد ضرورة أن يكون الإيمان شاملا غير مختزلا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء:١٣٦]، و النداء الالهي هنا دعوة للإيمان الذي لا يعني بالضبط كلمة الاعتقاد، فأن يكون لك إيمان، يعني أن تكون مؤمنا، أي أن يستحوذ هذا الإيمان علي قلبك، فتعتقد به اعتقادا راسخا، وأن تكون مستعدا لوضعه موضع التنفيذ والعمل طائعا مدركا لحقيقة أنه الحق من الله الخالق المبدع الممتلئ رحمة فكان (الرحمن) والممتد برحمته فكان (الرحيم)، ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات:١٤]، وبالمتابعة الدقيقة يتضح أن الإسلام في قراءته الخاصة المحمدية دعوة للشمولية ضد التجزئة، والعمومية ضد الاختزال، فالله يأمر كل مسلم بالإقرار بهذا القول ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٥].

والإسلام في نسخته المحمدية الخاصة يطرح الحل النموذجي العاقل لتسوية الخلافات بتأكيده علي المشترك المقدس، وإظهار وضاعة المختلف عليه بأنه لم يكن صادرا عن الرب، بل هو من إضافات الانحراف المنهجي للعقل البشري بفعل ((النفس و الهوى و الشيطان))، مثل قوله وتأكيده أن السيد المسيح عليه السلام واحد من أعظم الأنبياء في كل التاريخ الإنساني، ولكنه ينفي عنه صفة الربوبية ((الله الابن)) ، أو انه المخلّص الذي تحمل أخطاء البشر وخلّصهم منها بآلامه علي الصليب، في صلب لم يحدث من أصله، كما أن الرسالة الإسلامية في صياغتها الأصلية الخاتمة، ترفض ذلك التعصب الممقوت للأنبياء والرسالات، فالله سبحانه وتعالي شرف عيسى عليه السلام كما شرف قبله نوح وإبراهيم وموسي، وجعله قريبا منه ((جل جلاله))، وأجاز طاعته والتعبد بمحبته وتلاوة الصحيح من سيرته،

واعتبار كل ذلك طاعة وعبادة لله الواحد الأحد الذي لا شريك له في ملكه ولا كفؤ ولا ولد، ولكن الله ذاته أرسل غيره وشرّفه ورفع درجته، فصار ينبغي علي كل موحد أسلم وجهه لله وهو محسن أن يتبع ذلك النبي ويطيعه، ويتعبد بمحبته والتذكير بسيرته من أجل الله وليس من أجل النبي نفسه، ولا يحسب الإسلام المحمدي الرسل والأنبياء وكل ما ألهموا أو أوحي لهم من عقائد شرائع لاغية أو باطلة أو لا قيمة له، بل يؤكد أن الرسالات جميعها التي سبقت رسالة محمد عليه الصلاة والسلام حتى تلك التي أوحيت لعيسى عليه السلام لا تشتمل علي أي شيء مخالف للرسالة الخاتمة، ويعتبر جميع الرسالات مثل المصابيح المختلفة، ولكن الضوء واحد، ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَ ﴾ [المائدة:٤٤]، و يضيف كذلك ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة:٤٦]، ومن ذلك نفهم أن الإسلام واحد وإن تعددت رسالاته التي نعلم والتي لا نعلم عنها شيئا، كلها تصدق بعضها البعض وكل رسول جاء مصدقا لمن سبقه، ومصححا لما أدخل على رسالة التوحيد من تدخلات البشر والكهان، ونفض الغبار على ما أهمل منها، كأنما الرسالات ما كانت إلا للتصحيح وفقا للأصل الأول، وتذكير الإنسان ما نسيه من النسخة الأصلية، ولذلك يصف الله الرسالات بالذكر، لتذكير المتلقي بما كان قبل التحريف ونسيان الأصول بالاجتهاد العقلي البشري القاصر الغير مؤسس علي أصول محفوظة، لذلك وفي كل الرسالات كانت الصلاة لتصحيح السلوك، و كان الذكر لتصحيح الإيمان ﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٥]. ويقول عز وجل: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه:١٤] .

ثالثا: الصراط المستقيم و سفينة النجاة:

إن الرسالة الخاتمة التي تعهد الله بحفظها، والتي نزلت آياتها علي الرسول الخاتم ﷺ من أربعة عشر قرنا، لا زالت متصلة بنا حتى يومنا هذا بنصها الصحيح المحفوظ الذي نزلت به، كأنها تتحدث إلينا مباشرة، وهي تدعونا إلي التوحيد الخالص المبني علي التدبر، وتمنعنا من اتباع السبل ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٤]

والعمل علي الدعوة بعقيدة التوحيد فرضا دائما، ووصية واجبة الإتباع علي كل من أسلم وجهه لله وأراد أن يكون من المحسنين، علي أن يلتزم بأسلوب الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة وأن يجادل بالتي هي أحسن، علي قاعدة إدراك أن هناك رسالات متعددة منحت لشعوب وأقوام، والمتوقع منهم أن يميزوا المصدر السماوي للإسلام ويتمسكوا به ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٦٧].

إن الشيء الواضح في هذه الآية أن القرآن الكريم يؤكد علي حقيقة اختلاف مناسك الناس ويعترف بها، لكنه لا يسمح لمعتنقيها بمنازعة الرسول الخاتم □، حول أمر التوحيد الخالص المأمور بدعوتهم إليه، لهذا فالرسول ملزم بدعوة الناس من اتباع المناسك السابقة إلي الإسلام، وليس عليهم أن يجادلوه بل يتخذونه مرجعاً للتصحيح والتفسير ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣]. وهنا يتضح من الذكر الحكيم أن عالمية الرسالة الخاتمه وشموليتها مرتبطا بحمل الشهادة علي بني الإنسان، وليس علي شعب معين، في زمان ومكان محددين، بقطع النظر عن خلفيتهم الثقافية والفكرية، وبالأخص أهل الكتاب الذين يخاطبهم القرآن مباشرة ويدعوهم إلي كلمة سواء ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤]، نفهم من هذه الآية أن الإسلام هو ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ، وهذا هو جوهر الرسالة المحمدية ودليل شموليتها، وهذا ما كان يفعله الرسول الخاتم صلي الله عليه وآله وسلم حتى آخر لحظة في حياته الدنيوية، فقد ضمّن هذه الآية لرسالته إلي هرقل عظيم الروم التي وجهها إليه في آخر أيامه وهو يدعوه بدعاية الإسلام ((**من محمد بن عبد إلي هرقل عظيم الروم ، سلام علي من اتبع الهدي ، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك أجرك مرتين**)) كأنه يريد أن يقول ((**من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه**)) ويردفها بالتحذير ((**وإذا توليت فعليك وزرك ووزر الأريسيين**)) وليحدد له المفهوم الكامل لكيفية إحسان تسليم الوجه لله سبحانه وتعالي يسرد آية ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهذه الدعوة لا يمكن الادعاء بنسخ آياتها لأنها كانت من آخر ما قام به الرسول الكريم □، بإرسال هذه الرسالة لآخر الأقوام الذين دعاهم إلي كلمة التوحيد، وعلي هذا المنهاج نحتاج إلي كلمة نفصل فيها بين الشرك المؤدي إلي الكفر الموعود بالهلاك، والتوحيد المؤدي إلي الإيمان ومنه إلى النجاة.

رابعا : المسلمون والتعددية الدينية:

بعد التسليم بأن الدين الصحيح والشرعي الوحيد هو الإسلام، في قراءته الخاتمة، الذي أوحي بها إلى آخر رسل الله المختارين محمد ، يبقي هناك سؤال قائم من هو الموحد ومن هو الكافر المشرك ؟، بعد أن عرفنا من هو المؤمن الموحد الذي أسلم وجهه لله بإحسان وصدق الرسالات والرسل، فهل لنا أن نحدد الكافر المشرك الذي توعده الله بالعذاب ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس:٤]. ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٤]. ويردف ذلك بتحديد مجالات الخلاص بالمغفرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:١١٦]. حتى نفهم بشكل صحيح مثل هذه الآيات التي تشير إلي توعد الكافرين لا بد من تفحصها بالبحث عن دلالات تبين لنا لمن وجه هذا التهديد والوعيد؟ وتحت أي ظرف ؟، ووفق أي شروط ؟، و فيما إذا كان واجبا تنفيذه أم لا ؟.

من المتابعة نجد أن الوعيد باللعن والعذاب ليس مقصورا علي الكافرين وإنما يشمل كل بني آدم، وأن الكفر إنما وضع شرطا تكون عاقبته جهنم، ومع ذلك وبسبب أهميته وكونه الشرط الأول للعذاب الذي نقوم بمناقشته، هناك عدة نقاط يجب ملاحظتها حول مفهوم الكفر.

إن مصطلح (الكفر) واشتقاقه (كافر)، تختلف معانيها حين يأتيان في سياقات مختلفة، مثال ذلك، إن الأمر بقتل الكافرين في وقت الحرب يفسر عموما بأنه يخص الكفار المحاربين وليس المسالمين والنساء والأطفال والقاصرين، كما أن بعض المفسرين فهموا أن الإدانة الشرعية للمشركين في القرآن مختصة فقط بمشركي جزيرة العرب في زمن النبي محمد ، فيما فهم آخرون أن لها ترجمات وتفسيرات أوسع، أما المعني المجرد لمفردة ((كفر)) هي الغطاء، والكافر هو الشخص الذي يحرص علي تغطية مشاعره وحجبها عن حقيقة التوحيد، والكفر ليس شرطا سلبيا مختصا بجميع أولئك الذين هم بحاجة إلي الاعتقاد بالإسلام، وإنما هو اعتراض إيجابي داخلي يمنع الإنسان من قبول أو تلقي الهداية الإلهية، فالذي يدخل الكافر في دائرة اللعنة الإلهية هو تحديه الوجداني الخالص لله ورفضه لهذه الهداية الربانية التي أنزلها من خلال أنبيائه عليهم الصلاة والسلام، إن الكفر الخاص يحجب الكافر عن الله، وإن هذا الحجاب هو الذي يعني اللعنة والخروج من دائرة الرحمة الإلهية، وعدم التمتع بالمغفرة والخلاص من لدن غفور رحيم، كما أن هناك إجماع واتفاق علي أن التهديد بالعذاب لا يختص بجميع أولئك الذين يفتقدون الاعتقاد السليم والصحيح، فهناك استثناء واضح للذين لم يصلوا سن الرشد والمجانين وفاقدي العقول والذين ماتوا في الفترات الزمنية المحصورة بين أزمنة الرسالات، وهناك خلاف حول ماذا سيكون مصير هؤلاء وأمثالهم بالتحديد.

إن مثل هذه القضايا يستحيل إدراك حقيقتها إلا بالفطرة الإنسانية السليمة ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩]. كما أن الإسلام نفسه يأتي بدرجات من الحاجة الفطرية التواقة لمعرفة الحقيقة ودوافع الخير الكامنة في كل نفس إنسانية تبحث عن الإيمان والتقى، كما هي من خواص أصفياء الله وأوليائه، فلا أحد يمنع من الوصول إلي الهداية لعجزه عن تلمس طريق الاعتقاد الصحيح، ولكن بعض الاعتقادات الغير السليمة يمكن أن تمنع الفرد من تنقية نفسه وقد تقوده بشكل غير مباشر للشرك والكفر والعذاب، كما أن المفهوم الصحيح للرسالات يجعلنا ندرك أن الذي ينسخ الأديان المنزلة سابقا ليس لأنها لا تنطوي علي الحقيقة، وإنما لأن الله هو الذي أنزل تلك الديانات، وزودها بالقدرة علي هداية الإنسان نحو التكامل والخلاص، ولكن العجز عن قبول الجديد يصبح تمردا علي الله الذي أنزل القديم والجديد، لغاية يعلمها ونعلم أنها ما كانت إلا رحمة للعالمين، ووفقا لهذه التعددية غير المختزلة يصبح الإيمان الصحيح مطلوبا، ولكن ليس شرطا للخلاص والمغفرة برحمة الله التي وسعت كل شيء إلا أن يشرك به، ففي زمن الرسول كان اليهود والنصارى يعتبرون من اتباع معتقدات إبراهيمية حرّفها التدخل البشري، حتى وإن كانوا من أهل الكتاب، بل الصابئة وهم يعتقدون في النجوم وتأثيراتها، وعدوا جمعيا بالخلاص والمغفرة والتواب شرط الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [البقرة:٦٢]. وتكررت بنفس المعني في [المائدة:٦٩]: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٩ ﴾ ، ومن ذلك إذا فهمنا الإسلام بقراءته العامة، بمعنى التسليم الكامل لله والإقرار بوحدانيته، فلن يكون هناك نزاع في القراءة الضمنية للآية السابقة، كما أنه يمكن تفسير آية (الصابئة) بمعنى أن هناك أكثر من دين سماوي نزل على قوم برسول ورسالة دون أن نعرف عنهم شيئا، لاندثار آثارهم ومحتوى رسالاتهم، كما أنه يمكن أن تفهم بكونها تسمح أو تتساهل مع أولئك القاصرين الذين عاشوا بورع ورجاء وتقول بإمكانية خلاصهم حتى في وقتنا الحاضر، لأن الأمر يتعلق بالخلاص والمغفرة فلا فرق هنا، لأن القضية غير مشخصة بفرد قاصر بسبب فترته الزمنية أو بعد منطقته الجغرافية، أو أي عائق حجب الرسالة الخاتمة عنه تحت أي ظرف من الظروف، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى، حيث أساس ديانتهم موحى به من الله الواحد يمكن أن يغفر لهم، شريطة أن لا يكون إيمانهم غير التام ناشيء عن تقصير متعمد منهم، ما داموا يعتقدون وحدانية الله فإنه سيلحقهم برحمته الإلهية الموجود أساسها الأصلي في ديانتهم، بل إنه من الممكن أيضا أن يصل أتباع الهندوسية والبوذية والديانات التقليدية في أفريقيا وعند الهنود الحمر، وكثير من السبل الأخرى إلى الخلاص، شريطة أن يكون عدم أخذهم بالرسالة الخاتمة راجع إلى جهلهم بها، وليس إلى حكم مسبق جاهز ضدها

حيث يعتبرون في هذه الحالة قاصرين كأهل الفترة وغير قادرين، أكثر من اعتبارهم مقصرين أو مفرطين أو مهملين أو معاندين، كما أنه يستحيل إصدار حكم قطعي بأن التعاليم الأصلية الموجودة في دياناتهم لم تكن ناتجة عن وحي إلهي إلى نبي لا نعرفه، فنحن لم نعد نعرف كل الأنبياء ورسالاتهم وآثارهم، ولذلك فإن الفرد القاصر تحت أي مسمى وفي كل زمان ومكان يمكن أن يكون من الناجين بواسطة الحقيقة المقدسة الكامنة في الدين الذي يعتقده، مادام هذا الدين يقر بوحدانية الله الخالق ويؤمن باليوم الآخر، وفي أكثر الأقوال الموضوعية حذرا لا يمكن الجزم في ما إذا كانوا سيثابون أم سيعاقبون ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:١٠٦].

إن السؤال المتعلق بنجاة القاصرين من براثن الشرك، لا يحسم فقط بصحة أو خطأ التعاليم الموجودة في عقيدتهم أو منظومتهم المعرفية وحسب، وإنما على أرضية أسبابهم لتبرير هذا الاعتقاد، وما إذا كان مشفوعا بنية خالصة، فالإخلاص وحده يمكن أن يوصلهم إلى الرضاء الإلهي، فالإخلاص نفسه هو محور تسليم الوجه لله ((التوحيد))، ومن ذلك يمكن الإشارة إلى نقطة مهمة تخص الأجر المكفول للمؤمن المجتهد إذا أخطأ، وكان الخطأ نابعاً من اجتهاد نبيل وليس عن إهمال متعمد، وبالرغم من أن اجتهاده الخطأ سوف ينفد ويقبل من غيره، لا زال له الأجر والثواب دون اعتبار للخطأ والصواب في اجتهاده إلا بمضاعفة الأجر في الحالة الثانية. ونقطة أخرى إن العذاب ليس مصيرا فقط للفرد الكافر أو الذي يعتقد اعتقادا غير صحيح، إنما عدم الاعتقاد يشكل إثما عظيما، ومن ذلك نعرف أن الاعتقاد الخطأ ليس إثما بالنسبة للقاصرين إنما للمقصرين فقط، والفرق بين القاصر والمقصر يكمن في القلب((النية))، بل حتى العبادات أساسها (النية)، ناهيك عن الإيمان الذي هو قضية قلبية بحتة، وفي كثير من الآيات يجيز الله سبحانه وتعالى التعبد بكل الطرق السابقة واللاحقة، شريطة عدم انطوائها على أي مظهر من مظاهر الشرك ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [المائدة:٨٢-٨٥]، هذه الآيات تعلن بوضوح أن الجنة ستكون لمثل هؤلاء من أهل الكتاب، ومن كل المحسنين الذين صدّقت قلوبهم وحدانية الله وامتنعت عن الشرك به، حتى وإن عبدته بطريقتها طالما أن مقصدها البحث عن مرضاة الله

ويأمرنا الإسلام بالدعوة للإيمان بكل الرسالات وتصديق جميع الأنبياء دون تفريق، واعتبار كل من صدق بذلك هو من المهتدين ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [البقرة:١٣٦-١٣٧]. لا يعتقد أن هناك وضوحا أكثر من ذلك يبين جواز الاقتداء بأي نبي أو رسول ووفق أي منهج من المناهج الإلهية، فجميعها توصل إلى الله عز وجل وتقود إلى التسليم له والاهتداء بنوره المبدد لكل ظلامات الشرك وظلمه، وإخلاص النية تجعل الإيمان يؤثر في السلوك ﴿ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [آل عمران:٧٥]، وهذه الآية تلزمنا بمعاملة كل الناس بميزان القيم الأخلاقية التي تحترم كرامة بني آدم دون اعتبار لعرقه أو عقيدته.

في الختام إن الإسلام يأمرنا دون لبس بالتمسك بفطرة الحنيفية الإبراهيمية التي هي أصل كل الديانات السماوية السائدة في وقتنا المعاصر ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [البقرة:١٣٥]، وكل رافض للشرك مقر لله بالوحدانية مؤمن باليوم الأخر يعلم أنه محاسب فيرجوا ثواب الله ويستجير به من عذابه، لاشك أنه من المسلمين على ملة إبراهيم حنيفاً ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [آل عمران:٦٧].

فهل يشهد وقتنا المعاصر جهدا أكثر التزاما بالمنهج الإسلامي لتوسيع دائرة الموحدين ودحض الشرك وأهله، لتتم المساهمة في إخراج الناس من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد .. هذا مانتمنا من تفتيح مثل هذا الموضوع وطرح هذه الأفكار علّها تشد اهتمام الباحثين لتوسيع دائرة المشترك بين الناس الذين لا يستطيع أي منهم ادعاء حيازته كل الحقيقة.

التعايش الإسلامي المسيحي حقيقة تاريخية وضرورة اجتماعية:

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلوات وأزكى التسليمات، على سيدنا محمد، وعلى أبيه سيدنا إبراهيم، وأخويه سيدنا موسى وسيدنا عيسى، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، وبعد:

فإن موضوع التعايش بين المسلمين والمسيحيين عبر تاريخ والعلاقة بينهما منذ خمسة عشر قرناً إلى اليوم، قضية تعد من المسلّمات الاعتقادية والتشريعية والأخلاقية لنا نحن المسلمين، والسبب في ذلك، أن هذا التعايش قد وضع القرآن الكريم أسسه ومبادئه،وقام النبي الأكرم سيدنا محمد بتطبيقه حياة واقعية وأمثلة عملية، ثم نهج الصحابة من بعده المنهج نفسه، وانطلقت مسيرة التعايش الإسلامي المسيحي عبر هذه القرون الطويلة، متألقة تسير من تطبيق عملي لها إلى تطبيق عملي، خلا بعض الفترات الزمنية التي كانت علاقة التعايش فيها ترتكس نحو سلبية مظلمة، أو عصبية بغيضة، أو طائفية مقيتة، يسببها الجهل بحقيقة الدين السماوي، أو التأويلات المنحرفة، أو الأهواء والمصالح والأنانيات لبعض رجال الدين، أو تدخل الغرباء الذين يسعون لبث بذور الطائفية، تمهيداً لاستعمار واستغلال بلاد المسلمين والمسيحيين على السواء. لقد وضع القرآن الكريم وسنةُ النبي محمد قواعدَ التعايش مع غير المسلمين، وبخاصة المسيحيين، وكانت هذه القواعد أسساً واضحة جلية تستند على حفظ حق مقدس، ألا وهو حق الكرامة الإنسانية، حيث قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ الإسراء ٧٠]. وبيّن أن الناس متساوون من حيث بشريتهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وجاء في الوثيقة الإسلامية الكبرى لحقوق الإنسان على لسان النبي محمد قبل وفاته بأشهر في حجة الوداع، قوله : (خطبنا رسولُ اللهِ في وسطِ أيَّامِ التَّشريقِ خُطبةَ الوداعِ، فقال: يا أيُّها النَّاسُ ! إنَّ ربَّكم واحدٌ، وإنَّ أباكم واحدٌ، ألا لا فضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ، ولا لأحمرَ على أسودَ، ولا لأسودَ على أحمرَ إلَّا بالتَّقوَى، إنَّ أكرمَكم عند اللهِ أتقاكم، ألا هل بلَّغتُ، قالوا: بلى يا رسولَ اللهِ، قال: فليُبلِغِ الشَّاهدُ الغائبَ) رواه البيهقي في شعب الإيمان والألباني في السلسلة الصحيحة عن الصحابي جابر بن عبد الله، وكان رسول اللهِ يقول في دبر صلاته (اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أنك أنت الرب وحدك لا شريك لك اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أن محمدا عبدك ورسولك اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أن العبَّاد كلهم إخوة....) رواه أبو داود في سننه عن الصحابي زيد بن أرقم.ومن هنا كانت الحصانة لكل البشر بغض النظر عن ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم ودياناتهم،

فقد قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨]. فالاحترام والتقدير للشخصية الإنسانية حقيقة جلية في نصوص الإسلام، فلقد جاء في القرآن الكريم أن: ﴿مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا ﴾ [المائدة:٣٢].كل ذلك دون تفرقة بين لون أو جنس أو ملة، ولذلك كان النبي ﷺ يقول: (**إن يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا**) رواه مسلم في صحيحه عن الصحابي هشام بن حطيم بن حزام وأبو داود وأحمد وغيرهم.فالإيذاء والاعتداء على الكرامة الإنسانية جريمة من أسوأ الجرائم في الدنيا والآخرة في ميزان الإسلام. وقد قام النبي ﷺ يوماً من مجلسه تحية واحتراماً لجثمان ميت مرت جنازته أمامه، وقام معه المسلمون، فقيل له من باب التنبيه والتذكير: إنها جنازة يهودي، فقال: (**أليست نفساً**) رواه البخاري في صحيحه عن سهل بن حنيف و قيس بن سعد، وإذا أردنا أن نتحدث -من باب التقنين وتقعيد القواعد- في الأسلوب الذي باشر به الإسلام حقيقة التعايش مع الآخرين؛ نرى أن هذا التعايش ينطلق من قول الله تعالى: ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨]. فهذه الآية تشمل جميع أصناف الملل والأديان وتوجهنا أن نبرهم ونصلهم ونقسط إليهم، لأن الله يحب المنصفين الذين ينصفون الناس ويعطونهم الحق والعدل من أنفسهم،ويبرون من برهم، ويحسنون إلى من أحسن إليهم .

وكانت الضمانات لغير المسلمين واضحة في المجتمع الإسلامي، وتتجلى في ثلاثة أقسام:

القسم الأول: حمايتهم من أي عدوان خارجي.

القسم الثاني: الحماية الداخلية لهم.

القسم الثالث: إعطاؤهم الحريات العامة.

أما حمايتهم من الاعتداء الخارجي فإننا نرى قول الله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ﴾ [الحج:٤٠]. فالمسلمون مطالبون بقتال المعتدين وردهم عن المجتمع الإسلامي وحماية جميع أفراد هذا المجتمع من المسلمين وغير المسلمين، فالصوامع والبيع والصلوات هي أماكن العبادة لليهود والنصارى، والمساجد هي معابد المسلمين، فيجب حماية كل هذه الأماكن من أي اعتداء أو ظلم(انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي [٧٠/١٢]).ويقول فقهاء الشريعة الإسلامية: إن من كان في ذمتنا (أي إن أي مواطن في العالم العربي أو الإسلامي أو زائر غريب مسلم أو غير مسلم) وجاء أهل الحرب (أعداء الوطن يريدون الاعتداء عليهم في نفس أو مال أو أي نوع من الاعتداء)

وجب علينا أن نخرج لقتال هذا المعتدي وبكل الإمكانيات صونا لمن هو في عهد وذمة الله وعهد وذمة رسوله ﷺ).

وأما القسم الثاني وهو الحماية الداخلية فإنها تشتمل على حماية الدماء والأبدان وحماية الأعراض وحماية الأموال، فلقد قال النبي ﷺ: (**ألا من ظلم معاهَدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه فأنا حجيجه يوم القيامة**) رواه أبو داود في سننه. وكان العلماء على مدار التاريخ يوصون الأمراء والخلفاء والحكام بحسن معاملة غير المسلمين وتفقد أحوالهم، فهذا القاضي أبو يوسف يكتب إلى الخليفة هارون الرشيد يوصيه بتفقد أحوال أهل الذمة ورعايتهم فيقول:وقد ينبغي يا أمير المؤمنين أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد ﷺ والتقدم إليهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولايؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم (انظر: الخراج لأبي يوسف ص١٣٥.). ونرى في عهد النبي ﷺ لأهل نجران النصارى حماية واضحة للأموال والممتلكات، فقد جاء ما نصه ولنجران وحاشيتها جوار الله تعالى وذمة محمد رسول الله ﷺ على أموالهم وأرضهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير(انظر: الخراج لأبي يوسف ص٧٨.).ويكفل المجتمع الإسلامي غير المسلمين -كما يكفل المسلمين- عند عجزهم عن العمل والكسب، مثل ما يسمى اليوم الضمان الاجتماعي، وقصة الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب مشهورة عندما قدم دمشق فوجد قوماً مجذومين من النصارى فأمر لهم بالكفالة طول الحياة (انظر: فتوح البلدان ص١٧٧.).وكتب الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى أحد ولاته كتاباً جاء فيه:أما بعد: فانظر أهل الذمة فارفق بهم وإذا كبر الرجل منهم وليس له مال فأنفق عليه (انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد ٣٨٠/٥. وأما القسم الثالث وهو الحريات العامة وفي مقدمتها الحرية الدينية والاعتقادية وحق ممارسة الشعائر وصون أماكن العبادة، فإن القرآن الكريم قد حذر من قضية إلغاء الآخر من خلال قاعدته الربانية ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾ [البقرة:٢٥٦]. ونرى في عهود المسلمين مع غيرهم ما يؤكد حقيقة هذه القاعدة، فلقد جاء في وثيقة الصلح بين رسول الله ﷺ ونصارى نجران ما نصه:ولا يُغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، وليس عليه دَنيّة انظر: الخراج لأبي يوسف ص٧٨. وجاء في معاهدة الخليفة الفاروق عمر مع أهل القدس النصارى:(هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان: أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار منهم أحد) انظر: تاريخ الرسل والملوك [٤٤٩/٢].

ولعل من أروع الأمثلة على هذا التسامح الديني الرفيع، رغم أنه لم يكن هناك عقد أو معاهدة، هو سماح النبي الكريم ﷺ لوفد نصارى نجران المؤلف من حوالي ستين شخصاً بدخول مسجده الشريف، وجلوسهم فيه فترة طويلة، وعندما حان وقت صلاتهم قاموا متوجهين إلى المشرق ليصلوا صلاتهم، فقام المسلمون لمنعهم عن ذلك، إلا أن الرسول ﷺ نهاهم عن ذلك وتركهم يصلون في طمأنينة «انظر: السيرة النبوية ٥٧٤/١. أما بقية الحريات الأخرى، فكان من أهمها حرية الفكر والتعلم، حيث كان غير المسلمين مع المسلمين في ميدان الحياة العلمية على السواء تماماً، وأبلغ دليل على ذلك كثرة الإنتاج العلمي الذي ظهر على أيدي غير المسلمين في شتى المجالات العلمية،واشتهرت أسماء علماء كثر من غير المسلمين كانوا يعيشون في المجتمعات الإسلامية.ثم هناك حرية التنقل والسفر وحرية العمل والكسب وتولي الوظائف في الدولة الإسلامية إلا ما كان منها يحمل الصفة الإسلامية الدينية البحتة كالإمامة وغيرها. ثم هناك بقية الحريات الاجتماعية كالأعياد والمهرجانات والزيارات وحق الصلة بينهم وبين المسلمين فقد كان النبي الكريم محمد ﷺ يعود مرضى غير المسلمين ويزور جيرانه منهم ويحسن إلى محتاجهم ويدعوهم إلى الإسلام بكل رفق ولين.وإذا حدث في فترة من الفترات أن تعرض بعض أبناء غير المسلمين لمضايقات وإساءات تخالف مبادئ الإسلام وأحكامه ، ووقع عليهم بعض الاعتداء من جانب أفراد من المسلمين أو بعض أصحاب السلطة، فإن هذه الإساءات لا تمثل الإسلام أو المسلمين ومنهج العلماء الحكماء الذين وعوا الإسلام على حقيقته، ويجب أن لا ننسى أن ظلم بعض أصحاب السلطة عبر التاريخ لم يكن منصباً على غير المسلمين فحسب، بل وقع على كل فئات المجتمع من المسلمين وغيرهم .

الفصل الثاني : الزندقة والتطرف

ثقافة الوحدة وثقافة التفرقة:

لقد عمل الإسلام على بناء الوحدة كأساس للمجتمع المسلم وعبر عن ذلك الذكر الحكيم بصورة مشددة فقال عز من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران:١٠٢-١٠٥]، فلم ترد عبارة (حق تقاته) إلا في هذه الآية، تنبيها لأهمية وحدة أهل القبلة، ويقول جل وعلا: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٩٢]، وكانت عبادته تجسيداً عملياً لهذه الوحدة فالصلاة واحدة في أركانها وأذكارها وقبلتها، والصوم واحد في الوقت والشكل، والحج لكعبة واحدة ووقفة في مكان واحد وشعائر موحدة، ولا يكون للعبادات معنى ما لم تعكس شعوراً بوحدة الانتماء إلى هذا الدين العظيم، ويعزز ذلك ما دعا إليه الإسلام من ضرورة التآخي بين المسلمين ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ ولقد شرح النبي صلى الله عليه وآله وسلم مفهوم التآخي في الإسلام بقوله روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ط أن رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (لا تحاسَدوا، ولا تناجَشوا، ولا تباغَضوا، ولا تدابروا، ولا يبِعْ بعضُكم على بيعِ بعضٍ، وكونوا عبادَ اللهِ إخوانًا المسلمُ أخو المسلمِ، لا يظلِمُهُ ولا يخذلُهُ، ولا يحقِرُهُ التَّقوَى ههُنا ويشيرُ إلى صدرِهِ ثلاثَ مرَّاتٍ بحسبِ امرئٍ منَ الشَّرِّ أن يحقِرَ أخاهُ المُسلمَ، كلُّ المسلمِ على المسلم حرامٌ، دمُهُ، ومالُهُ، وعِرضُهُ وفي روايةٍ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: فذَكَرَ نحوَ حديثِ داودَ، وزادَ، ونقصَ وممَّا زادَ فيهِ إنَّ اللَّهَ لا ينظرُ إلى أجسادِكُم، ولا إلى صورِكُم، ولَكِن ينظرُ إلى قلوبِكُم وأشارَ بأصابعِهِ إلى صدرِهِ) وروى البخاري في صحيحه عن أبي موسى الأشعري ط أن رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إنَّ المُؤمِنَ للمُؤْمِنِ كالبُنيانِ، يَشُدُّ بَعضُهُ بَعضًا، وشَبَّكَ أصابعَهُ) وأكد على ذلك بقوله كما جاء في صحيح مسلم عن الصحابي النعمانَ بن بشير:

(مَثلُ المؤمنين في توادِّهموتراحُمِهم وتعاطُفِهم مَثَلُ الجسدِ . إذا اشتكَى منه عضوٌ ، تداعَى له سائرُ الجسدِ بالسَّهرِ والحُمَّى)، وفي خط متوازٍ مع الدعوة للوحدة

نجد أن القرآن الكريم ينبذ التفرقة بعشرات الآيات مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [آل عمران:١٠٥]، وقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وقوله ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال:٤٦]، و لعل من أهم أسباب تفشي ثقافة التفرقة هو تقليد الرجال من السلف دون عرض على ميزان الأصول، الأمر الذي لم يكن عليه الصحابة في صدر الإسلام، فهذا باب مدينة العلم على كرم الله وجهه يقول: (**نحن قوم لا نعرف الحق بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله**) كما في نهج البلاغة، وهذا أبو بكر الصديق ط يقول: (**وليت عليكم ولست بخيركم، أطيعوني ما أطعت فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم**) وكذلك الفاروق عمر ط يقول: (**إذا رأيتم فيّ اعوجاجاً فقوموني**) ويقول: (**لو قيل كل الناس إلى الجنة إلا واحد لخشيت أن أكون أنا**)، وعندما أحتج البعض على إمام دار الهجرة مالك ط بفعل أو قول بعض السلف قال قولته الشهيرة وهو أمام الروضة المطهرة في الحرم الشريف (**كل الناس يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا صاحب هذا المقام**) وأشار بيده إلى قبر الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، ومن أعقد المسائل التي أصيب بها المسلمون والتي عملت على إفشاء ثقافة التفرقة في مقابل ثقافة الوحدة هي مسألة ربط الإسلام بالرجال وجعل أعمالهم شريعة وديناً يدان به لله تعالى.

والحق هو أن تكون أعمال الأفراد من السلف والخلف خاضعة للأصول، وقد لعب الزنادقة دوراً فاعلاً في تأسيس ثقافة التفرقة ونشرها في بداية القرن الثاني من البعثة المحمدية على صاحبها الصلاة والتسليم وتعميماً للفائدة نستهل محاورنا البحثية في هذا الباب بالتعرض لنشأة الزندقة.

المبحث الأول: تاريخ نشأة الزندقة

تعريف الزندقة: نسبة إلى (زنديق) وهي كلمة أصلها فارسي قال المسعودي في مروجه أن زرادشت كتب تفسيراً لكتاب (أوستا) سماه (زند) ومن ثمَّ عرَّف الفرس كل من أتى بتأويل لنصوص كتبهم يخالف ما اتفقوا على شرعيته بمصطلح (زندي) بمعنى المنحرف عن جوهر النص إلى تأويل مخالف لما اتفق على معناه، وأخذت العرب من الفرس هذا المصطلح بعد تعريبه فقالت (زنديق) وأطلقتها على كل منكر لأصل من أصول العقيدة، أو كل رأي يؤدي إلى ذلك، وانتهى الأمر أخيراً بإطلاقه على كل من يكون مذهبه مخالفاً لما أجمعت الأمة على صحته.

تاريخ الزندقة: أول من أشتهر وعرف من الزنادقة بل وأخطرهم لدرجة أن خطر مدسوساته وأكاذيبه وتأويلاته لازالت سارية حيَّة حتى وقتنا المعاصر يتناقلها دعاة الفتنة والطائفية وتندس بخبث واضح بين أشهر الكتب وأكثرها انتشاراً، هو المسمى سيف بن عمر التميمي الأسيدي من بطن أسيد من بني عمرو من تميم من مضر، أجمع المحدثون على أنه من أخطر الوضّاعين، بدءاً من أبي داود المتوفى سنة ٢٧٥ هجري إلى ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ هجري جميعهم انتقدوه بكلمات مثل (ضعيف) (متروك الحديث) (ليس على شيء) (كذّاب) (متهم بالزندقة) وغير ذلك، واتفقوا على عدم اعتبار رواياته وكذبها، والباحث المتأمل لن يفوته أنه نادراً ما يتفق المحدثون على مثل هذا التوافق في جرح الرجال، مما يجعل الإنسان يتعجب من الكتّاب الذين جاءوا بعده وتناقلوا أساطيره، وقد بلغت الزندقة بهذا الوضّاع درجة أنه اخترع أكثر من مائة وخمسين صحابياً لم يخلقهم الله أبداً وتحدث على لسانهم هذا الزنديق، وهو الذي اخترع شخصية عبدالله بن سبأ التي لا وجود حقيقي لها، ودبّج الأساطير التي لازال يستعملها بعض المتفيقهين في بث الفتنة والفرقة ودعوة الطائفية، وقد بلغت خطورة هذا الرجل الذي توفى عام ١٧٠هجري في خلافة هارون العباسي، أنه ألف كتاب (الفتوح والردّة) وكتاب (الجمل ومسير علي وعائشة) اللذان أصبحا من أكثر المصادر التاريخية انتشاراً حتى يومنا هذا، والمرجح أن كتابه الأول (الفتوح والردّة) كتب قبل عام ١٥٧ هجري لأن (أبى مخنف لوط بن يحي) المتوفى عام ١٥٧هجري نقل عنه مما يدل على انتشار كتابه قبل هذا التاريخ، والمرجح أنه ولد في بداية القرن الثاني الهجري وبدأ الكتابة في العصر الأموي، ومن أساطير سيف المشهورة هذا الحديث الذي رواه الطبري من حوادث **22**هجري قال (لما انهزم أهل جلولاء خرج «يزدجرد» كسرى الفرس يريد «الري» وكان ينام في محمله والبعير يسير به ولا يعرسون فانتهوا به إلى مخاضه وهو نائم في محمله، فأنبهوه ليعلم ولئلا يفزع إذا خاض البعير، فعنفهم وقال «بئسما صنعتم والله، لو تركتموني لعلمت مدة هذه الأمة، إني رأيت أني ومحمداً تناجينا عند الله فقال له: أملكهم مائة سنة، فقال زدني، فقال عشراً ومائة، فقال زدني، فقال عشرين ومائة سنة، فقال لك....، وأنبهتموني فلو تركتموني لعلمت ما مدة هذه الأمة؟)،

ونقف على هذا الحديث قليلاً لنناقشه ثم نبين وجه دلالته على عصر وضعه.

أ- يقول سيف: إن كسرى قال (بئسما صنعتم والله) وكسرى كان مجوسياً ويمين المجوس كانت النار المقدسة والشمس والقمر، واليمين بالله كانت معروفة عند المسلمين الذين عاش سيف بينهم.

ب- كسرى لم يكن مؤمناً بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يكن يراه أهلاً لمناجاته عند ربه، ولا يدل الحديث على شيء أوضح من بيئة سيف واضعه ومؤلفه كذباً، ويدل كذلك على رأيه في الإسلام الذي يؤمن المسلمون بأنه سيكون إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهذا دليل على نفاق سيف الذي وضع على لسان كسرى أنه قال: (لو تركتموني لعلمت ما مدة هذه الأمة)، ولعله كان يعتقد بمعتقده الفاسد الذي يرى انقراض الأمة الإسلامية بسبب ما كان يعلمه من نشاط الزنادقة المحموم لهدم الإسلام، أو بفعل الغزوات الخارجية من الفرس والروم .

وهنا لابد من الإشارة إلى تاريخ الطبري الذي لا يتردد في نقل روايات سيف، وهذا يدل على أن كتاب التاريخ والسير لم يكونوا في كفاءة أهل الحديث واحترازهم وتدقيقهم في صحة الرواية في متنها وسندها، بل أن كتاب التاريخ ينقلون كل الروايات دون نقد أو تمحيص أو انتخاب وهذا ليس بالعمل العلمي الذي يعتد به ويعتمد عليه، ولهذا تكون بعض رواياتهم أقل اعتباراً من روايات الحديث وبالرغم من ذلك علينا أن نعذرهم فهم على الأقل قد جمعوا كمية من الأخبار ويبقى دور المحقق الواعي لينتخب الإرث من الموروث، ويميّز الصحيح من السقيم، ومن أدلة الوضع الأخرى أن أغلب رجال سيف ورواته لم ينقل عنهم غيره، مما يؤكد صفة الوضع وخلق الشخصيات، وقد أشار سيف إلى أساطير يستحيل على العقل تصديقها مثل تحول الصحراء إلى مياه للجيش الإسلامي، ومياه البحر إلى رمال، وأن الأبقار أخبرتهم عن مخبئها إلى غير ذلك.

ومن أخطر تلفيقاته اختراعه لشخصية عبدالله بن سبأ اليهودي المجهول، الذي اندس بين أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ويقوم بإغوائهم ويحرض الناس على الثورة ضد عثمان ط، ويتسبب في قتله ويحرض على المعركة بين علي وطلحة والزبير يوم الجمل، ويكون بذلك قد زرع بذور الفتنة في حقل المسلمين، لازالت حشائشها الطفيلية السامة تعيق نمو الزرع المثمر حتى يومنا هذا، ونجد كذلك أن سيف هذا صرف وقتاً طويلاً في اختلاق أبطال أسطوريين من تميم قبيلته التي يرجع إليها أصله وهو الذي ولد وعاش بالكوفة في عصر الأمويين الذين مجدهم في كتبه وأساطيره وربط بينهم وبين مضر أصل قبيلة تميم، لذلك اخترع منهم الصحابة وقادة الجيوش والشعراء واخترع لأجلهم الأحاديث والمعارك والقصائد في عصر كانت فيه العصبية القبلية هي السائدة، ولأجل هذا المجد مات منهم في خيال سيف المريض عشرات الألوف وعدداً كبيراً من الأسرى، ليخلد الشعر والشعراء الوهميين الأبطال من مضر وتميم وبنو عمرو فرعه الذي يرجع إليه أصله

وكل هذا شوش على عقيدة الكثيرين وأعطى غير المسلمين فهماً خاطئاً عن الإسلام، وقد كان سيف هذا بارعاً في مزيفاته إلى حد أنهم تقبلوها كحقائق تاريخية لازال الكثيرون يحاججون بها حتى اليوم على أنها من أفعال وأقوال السلف الصالح، ووجد المغالون والمتطرفون مادتهم لترويج غلوهم وتطرفهم في روايات سيف وأمثاله، وما عليك أيها الأخ المشفق إلا أن تهوّن على نفسك وأن تصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا وكن داعياً للحق الذي لا يدرك إلا بالعلم والتمحيص والابتهال إلى الله حتى يريك الحق ويرزقك اتباعه ويريك الباطل ويرزقك اجتنابه، واصبر على ما سوف يقولونه في حقك، وأعلم أنه لا أكمل ولا أعقل من سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم وقد قالوا عنه أنه ساحر ومجنون، وأي كلام أجل وأصدق من كلام رب العالمين وقد قالوا إنه أساطير الأولين، وإياك أن تشتغل بخصامهم وتطمع في إفحامهم فتطمع في غير مطمع ، أما سمعت قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجر: ١٤-١٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام: ٧].

اعلم أخي المؤمن أن الحق والضلال وسرهما، لا ينجلي للقلوب المدنّسة بطلب الجاه والمال وحبهما، بل لا ينكشف إلا للقلوب التي طهرت من وسخ الدنيا، ثم نورت بالذكر الصافي، وغذيت بالفكر الصائب، وزينت بملازمة حدود الشرع،حتى فاض عليها النور من مشكاة النبوة (واتقوا الله ويعلمكم الله) وصارت كأنها مرآة مجلوّة ، وصار مصباح الإيمان في زجاجة قلبه ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، وأترك أهل الزندقة الذين اتخذوا الهوى إله لهم، وعبدوا حكامهم، وكان الدينار قبلتهم، والرعونة شريعتهم، والشهوات إرادتهم، وخدمة السلاطين عبادتهم، والوسواس ذكرهم، وفكرهم استنباط الحيل للتدجيل على المسلمين، وكيف لهؤلاء تمييز الصحيح من السقيم، أبإلهام إلهي وقلوبهم لم تفرغ من الهوى وحب الدنيا، أم بكمال العلم وبضاعتهم في العلم فقه الحيض والمرحاض وإطلاق اللحية وتشمير السروال هيهات هيهات...، فأعرض عمن تولى عن ذكر الله ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾.

إن أفكار الزنادقة هي التي أسست للتطرف وزينت للمتطرفين تكفير من يختلف معهم لاعتقادهم أن الحق لا يجري إلا مجراهم وهم لذلك كفروا من أقر لله بالوحدانية ولمحمد بالرسالة لمجرد اختلافه معهم في فرع ليس من الأصول التي يجب معرفتها من الدين بالضرورة، فهل هناك أساس عقلي أو نقلي للتكفير بسبب الاختلاف المذهبي؟.. دعنا نحاول الإجابة من الكتاب والسنّة.

المبحث الثاني: التطرف وأثره في تكفير الغير دون أساس

أخي المؤمن كل من يعتقد أن مذهبه فقط هو المذهب الحق وأن من يعتقد أو يقلد أحد المذاهب الأخرى من تلك التي أجمع المسلمون على جواز تقليدها والتعبد بها على خطأ، ثم يكفره، فاعلم أنه زنديق، واعلم أنك إن أنصفت علمت أن من جعل الحق وقفاً على واحد من الفقهاء والعلماء بعينه فهو إلى الكفر والتناقض أقرب وذلك لما يلي:

أما الكفر فلأنه أنزل شيخه أو من قال بقوله، منزلة النبي المعصوم من الزلل، الذي لا يثبت الإيمان إلا بموافقته، ولا يلزم الكفر إلا بمخالفته. **وأما التناقض** فهو في حقيقة أن ما رآه حجة عليه، وكل يرى بنظره، فكأنه يقول لغيره قلدني في مذهبي وعليك أن ترى بنظري وهذا يستحيل. والحقيقة التي يجب على كل مسلم التمسك بها هي معرفة حد الكفر، وشرح هذا يطول ولكن إيجازه لمعرفة العلاقة الصحيحة التي تعصم الإنسان من تكفير أهل القبلة من أصحاب المذاهب والمدارس الفقهية الإسلامية وإن اختلفت طرقهم ما داموا متمسكين بقول (لا إله إلا الله محمد رسول الله) صادقين بها، غير مناقضين لها ، يكون بإدراك أن الكفر هو **(تكذيب الرسول صلى عليه وآله وسلم) (في شيء مما جاء به)** والإيمان هو **(تصديقه في جميع ما جاء به)**، وهذا لأن الكفر حكم شرعي وليس اجتهاد عقلي، ومعناه الحكم بإباحة الدم والمال والخلود في النار، وهذا لا يدرك إلا بنص، أو قياس على منصوص، وقد وردت النصوص في اليهود والنصارى والبراهمة والزنادقة والدهرية وكلهم مشركون مكذبون للرسل، وتكذيب الرسل هو العلاقة المطردة المنعكسة، ومما ذكر سنجد أن جهّال كل فرقة تكفر مخالفتها وتنسب ذلك إلى تكذيب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فالحنبلي يكفر الأشعري زاعما أنه كذب الرسول في إثبات الفوق لله تعالى، وفي الاستواء على العرش، والأشعري يكفر الحنبلي لأنه كذب الرسول وشبه الله الذي (ليس كمثله شيء)، والأشعري يكفر المعتزلي زاعماً أنه كذب الرسول في جواز رؤية الله تعالى وفي إثبات العلم والقدرة والصفات له، والمعتزلي يكفر الأشعري لأنه كذب الرسول في التوحيد زاعماً أن إثبات الصفات تكثير للقديم، ولا يمكن أن يخرج الإنسان من هذه الورطة إلا بمعرفة حد التكذيب والتصديق وحقيقتهما، فينكشف له غلو هذه الفرق وإسرافها في تكفير بعضها بعض، ولذلك **فإن معرفة حقيقة التصديق هي الاعتراف بوجود ما أخبر الرسول صلى عليه وآله وسلم بوجوده**، وللوجود خمس مراتب، وبسبب الغفلة عن هذه المراتب نسبت كل فرقة مخالفها للتكذيب، ومراتب الوجود هي (**ذاتي، وحسي، وخيالي، وعقلي، وشبهي**)، ومن اعترف بوجود ما أخبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن وجوده بوجه من هذه الوجوه الخمسة فليس بمكذب على الإطلاق

ولتحقيق ذلك ننقل شرح مراتب الوجود:

١- الوجود الذاتي: هو الوجود الحقيقي الثابت خارج الحس والعقل ويأخذ الحس والعقل عنه فيسمى أخذه إدراكاً، وهذا كوجود السماء والأرض والحيوان والنبات، وهو ظاهر بل هو المعروف الذي لا يعرف الأكثرون للوجود معنى سواه.

٢- الوجود الحسّي: فهو ما يتمثل في القوة الباصرة (العين) مما لا وجود له خارجها، فيكون موجوداً في الحس، ويختص به الحاس ولا يشاركه غيره، مثل (الحلم) الذي يشاهده النائم، والخيال الذي يشاهده المريض النفسي يقظة، الذي تتمثل له صورة لا وجود لها خارج حسه، وما يتمثل للأنبياء والأولياء في اليقظة والصحة، من صور جميلة تحاكي جواهر الملائكة، ينتهي إليهم الوحي والإلهام بواسطتها، فيتلقون من أمر الغيب في اليقظة ما يتلقاه غيرهم في المنام، وذلك لشدة صفاء باطنهم كما قال تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ ورؤية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لجبريل وقد رآه في عدة صور ولم يره على صورته إلا مرتين، وكذلك مثل من يرى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في المنام وقد قال : **«من رآني فقد رآني حقاً، فإن الشيطان لا يتمثل بي»** ولا يعني ذلك انتقال شخصه من روضته بالمدينة المنورة إلى موضع القائم، بل هي على سبيل وجوده في حس النائم.

٣- الوجود الخيالي: هو صورة هذه المحسوسات إذا غابت عن حسك، فإنك تستطيع أن تخترع في خيالك صورة حيوان أو إنسان أو أي شيء وأنت مغمض العينين، حتى كأنك تشاهده، وهو موجود بكمال صورته في خيالك داخل دماغك لا خارجه.

٤- الوجود العقلي: هو أن يكون للشيء روح، وحقيقة، ومعنى، فيتلقى العقل مجرد معناه، دون أن يثبت صورته في الخيال أو الحسّ أو خارج، فللقلم مثلاً صورة ولكن حقيقته ما تكتب به المعارف والعلوم وهذا ما يتلقاه العقل من غير أن يكون مقروناً بصورة مادة القلم قصب أو خشب أو معدن.

٥- الوجود الشبهي: وهو أن يكون نفس الشيء موجوداً لا بصورته ولا حقيقته لا في الخارج ولا في الحس ولا في الخيال ولا في العقل ولكن يكون الموجود شيئاً يشبهه في خاصة من خواصه وصفة من صفاته.

ومن هذه المراتب الخمسة ودرجاتها في التأويل نشرحها كما يلي:

أ- **الوجود الذاتي**: لا يحتاج إلى مثال وهو الذي يجري على الظاهر ولا يؤول لأنه الوجود المطلق الحقيقي كإخبار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن العرش، والكرسي والسماوات السبع كونها أجسام حقيقية أدركت بالحس والخيال أو لم تدرك.

ب- **الوجود الحسي**: مثل قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم (عرضت عليّ الجنّة في عرض هذا الحائط) فمن قام عنده البرهان على أن الأجسام لا تتداخل وأن الصغير لا يسع الكبير حمل ذلك على أن نفس الجنّة لم تنتقل إلى الحائط لكن تمثل للحس صورتها في الحائط حتى كأنه يشاهدها،

ولا يمتنع أن يشاهد مثال شيء كبير علي شيء صغير كما نشاهد اليوم على شاشات التلفاز التي هي أقل من مساحة الحائط يمكن للمشاهد أن يرى من خلالها العالم بكامله، كما أنه يمكنك أن تتخيل أن الجنّة على حجم الحائط وأنت مغمض العينين في خيالك.

ت - الوجود الخيالي: و مثاله قوله صلى الله عليه وله وسلم: (كأني أنظر إلى يونس بن متى عليه عباءتان قطوانيتان، يلبي وتجيبه الجبال، والله تعالى يقول له لبيك يا يونس) والظاهر أن هذا إنباء عن تمثل الصورة في خياله، إذ كان وجود هذه الحالة سابقاً على وجود الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقد انعدم ذلك ولم يعد موجوداً في الحال، ويمكن القول أيضاً تمثل هذا في حسه حتى صار يشاهده كما يشاهد القائم الصورة وقوله **كأني أنظر**، يدل على أن غرضه كان التفهيم بالمثال لا عين الصورة.

ث- الوجود العقلي: فأمثلته كثيرة منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم (إن الله خمّر آدم بيده أربعين صباحاً) فقد أثبت لله تعالي يداً، ومن قام عنده البرهان على استحالة (يد) لله تعالى كجارحة محسوسة أو متخيلة، فإنه يثبت لله سبحانه يداً روحانية عقلية بأن يثبت معنى اليد وحقيقتها وروحها دون صورتها، وكذلك ما ذهب إليه أن اليد عبارة عن صفة لله تعالى كالقدرة والكرم والرحمة وغيرها.

ج - الوجود الشبهي: فمثاله الغضب والشوق والفرح وغير ذلك مما ورد في حق الله تعالى ، فالغضب مثلاً حقيقته أنه غليان القلب لإرادة التشفي ، وهذا لا ينفك عن نقصان وألم، فمن قام عنده البرهان على استحالة ثبوت نفس الغضب لله تعالى ثبوتاً ذاتياً وحسياً وخيالياً وعقلياً، نزّله على ثبوت صفة أخرى يصدر منها ما يصدر من الغضب في حقيقة ذاته، ولكن في صفة من الصفات تقارنها، وأثر من الآثار يصدر عنها وهو الإيلام مثلا.

مما سبق نعلم علم اليقين أن كل من نزّل قولاً من أقوال صاحب الشرع على درجة من هذه الدرجات، فهو من المصدقين، والتكذيب أن ينقض جميع هذه المعاني، ويزعم أن ما قاله لا معنى له وذلك هو الكفر المحض والزندقة وتنكّب جادة الصواب هو تكفير المؤولين الذين يلازمون قانون التأويل، وما من فريق من أهل الإسلام إلا وهو مضطر إليه، فأبعد الناس عن التأويل الإمام أحمد بن حنبل رحمة الله عليه، وأبعد التأويلات عن الحقيقة وأغربها أن تجعل الكلام مجازاً أو استعارة ، ونعني بذلك الوجود العقلي والوجود الشّبهي، اللذان أسلفنا ذكرهما، ونجد أن الحنبلي مضطر إليه وقائل به

وقد قام الإمام أحمد بتأويل ثلاثة أحاديث وهي:

١- قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (**الحجر الأسود يمين في الأرض**) حيث قام البرهان عنده على استحالة ظاهره فقال: اليمين تقبل في العادة تقرباً إلى صاحبها والحجر الأسود يقبل أيضاً تقرباً إلى الله تعالى فهو مثل اليمين لا في ذاته ولا في صفات ذاته ولكن في عارض من عوارضه، وسمي لذلك يميناً، وهذا هو الوجود الذي سميناه الوجود الشبهي وهو أبعد وجوه التأويل، فانظر كيف اضطر إليه أبعد الناس عن التأويل.

٢- قوله صلى الله عليه وآله وسلم (قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن) حيث قام البرهان عنده على استحالة وجود إصبعين لله تعالى حسّاً فتأوله على روح الإصبعين، وهي الإصبع العقلية الروحانية التي يتيسر بها تقليب الأشياء وبها يقلب الله تعالى القلوب فكني بالإصبعين عنهما.

٣- قوله صلى الله عليه وآله وسلم (إني لا أجد نفس الرحمن من قبل اليمن) وتأوله على ما عرف عن أهل اليمن من رقة ولطف ورحمة أو أن الرياح التي تهب على الحجاز من جهة اليمن ناعمة .

وقد اقتصر أحمد بن حنبل ط على تأويل هذه الأحاديث الثلاثة لأنه لم تظهر عنده استحالة إلا في هذا القدر، وقد تجاوز الأشعري إلى تأويل ظواهر كثيرة لزيادة بحثه، والمعتزلة أشد توغّلا في التأويلات ومن هنا نعلم أن كل فريق وإن بالغ في ملازمة الظواهر فهو مضطر إلى التأويل، إلا أن يجاوز الحد في الغباوة والجهل فيقول مثلاً: الحجر الأسود يمين الله تحقيقاً، ومن انتهى إلى هذا الحد من الجهل فقد انخلع من ربطة العقل ولا يكون إلا زنديقاً.

قد علمنا اتفاق الفرق من أهل القبلة على درجات التأويل الخمس وأن ذلك ليس من حيز التكذيب الموجب للتكفير، فيجب أن نعلم أيضاً أن جواز ذلك موقوف على قيام البرهان على استحالة الظاهر، والظاهر الأول هو الوجود الذاتي فإنه إذا ثبت ألزم الجميع، فإن تعذر فالوجود الحسّي فإن تعذر فالوجود الخيالي أو العقلي وإن تعذر فالوجود الشبهي المجازي، ولا رخصة للعدول على درجة إلى ما دونها إلا بضرورة البرهان، ويرجع الاختلاف على التحقيق إلى البراهين، إذ يقول الحنبلي: لا برهان على استحالة اختصاص الباري بجهة فوق، و يقول الأشعري: لا برهان على استحالة الرؤية، و كان كل واحد لا يرضى بما ذكره الآخر و لا يراه دليلاً قاطعاً، وكيفما كان فلا ينبغي أن يكفر كل فريق غيره بمجرد أن يراه غالطاً في البرهان، يجوز مثلاً أن يراه ضالاً عن الطريق الثابت عنده، أو أنه مبتدعاً من حيث أنه ابتدع قولاً لم يعهد من السابقين التصريح به

وعن هذا يتضح أن هناك مقامين:

المقام الأول: مقام العوام، و الحق فيه الاتباع و الزجر عن الخوض في الكلام وتتبع ما تشابه من الكتاب والسنّة كما روي عن الإمام مالك ط، أنه سئل عن الاستواء فقال: (**الاستواء معلوم، والإيمان به واجب، والكيفية مجهولة، و السؤال عنه بدعة**).

المقام الثاني: بين أهل العلم الذين اضطربت مأثوراتهم المروية، فينبغي أن يكون بحثهم بقدر الضرورة، و تركهم الظاهر لا يكون إلا بضرورة البرهان القاطع، ولا ينبغي أن يكفر بعضهم بعضاً بأن يراه غالطاً فيما يعتقده برهاناً، وليكن للبرهان بينهم قانون متفق عليه، فإنهم إن لم يتفقوا في الميزان لم يمكنهم دفع الخلاف بالوزن، مع العلم بأنه لا يستحيل الاختلاف، إما لقصور بعضهم عن إدراك تمام شروطه، وإما رجوعهم إلى الطبع والعادة دون الوزن بالميزان الشرعي، أو لاختلافهم في العلوم التي هي مقدمات البراهين، فالعلوم التي هي أصول البراهين تجريبية وتواترية وغيرها، والناس يختلفون في التجربة والتواتر، فقد يتواتر عند الواحد ما لا يتواتر عند غيره، و قد يتولى تجربة لا يتولاها مخالفه، أو لالتباس قضايا الوهم بقضايا العقل، أو لالتباس المصطلحات بالضروريات والأوليات ولكن الثابت أنهم إذا تمكنوا من موازين الاختلاف وحققوها، أمكنهم الوقوف عند ترك العناد علي مواقف الغلط و العزة بالإثم.

ومن ذلك يمكن القول أن التأويل دون برهان قاطع يؤدي إلى الزندقة، ويدفع إلى الغلو والتطرف، فكثير من السذج ينساق لمقولات الزنادقة ويبادر إلى التأويل بغلبات الظنون من غير برهان قاطع، ويبادر إلى التكفير دون أن ينظر إن كان التأويل في أمر لا يتعلق بأصول العقائد ومهماتها وذلك لا يلزم التكفير، مع وجوب ردع من يغير الظاهر ويتأوله بغير برهان قاطع، وهذه هي الزندقة بعينها، التي يجب تكفيرها قطعاً، وكذلك من يقول جاز للرسل الكذب لإصلاح الناس، فليس بكاذب عندهم من أصلح غيره فقال ما فيه صلاحهم وإن لم يكن ما قاله موجودا، وهذا باطل قطعاً لأنه تصريح بالكذب وهذه أول درجات الزندقة، وفي لفظ لحديث مشهور في بعض الروايات (ستفترق أمتي إلى بضع وسبعين فرقة كلها في الجنة إلا الزنادقة) أورده الغزالي في كتاب فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، وظاهر الحديث يدل على أنه أراد به (الزنادقة) من أمته، إذ قال (ستفترق أمتي) ومن لم يعترف بنبوته فليس من أمته، ومن ذلك نعلم أن الزنادقة قد يقولون مقولة التوحيد ظاهراً، ولكنهم من أهل النار ولا نعلم معنى للزندقة إلا هذا، وحيث أنه يطول شرح الزندقة وما يكفر ولا يكفر

وذلك يحتاج مجلدات فلا مجال أمامنا إلا أن نقنع بوصية وقانون:

أما الوصية: أن تكف اللسان عن أهل القبلة ما أمكنك، ما داموا قائلين بلا إله إلا الله محمد رسول الله، غير مناقضين، والمناقضة تجويز الكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعذر أو بغير عذر، ويجب أن نعلم أن التكفير فيه خطر، والسكوت لا خطر فيه.

أما القانون: فهو أن تعلم أن النظريات قسمان: قسم يتعلق بأصول القواعد، وقسم يتعلق بالفروع، وأن أصول الإيمان ثلاثة هي الإيمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر، وما عداه فروع، واعلم أنه لا تكفير في الفروع أصلاً إلا في مسألة واحدة، وهي أن ينكر أصلاً دينياً علم من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالتواتر، قد يكون في بعضها تخطئة كما في الفقهيات، وفي بعضها تبديع كالخطأ المتعلق بأحوال الصحابة، أما تكذيب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يوجب التكفير وإن كان من الفروع، فلو قال قائل مثلاً: البيت الذي بمكة ليس الكعبة التي أمر الله بالحج إليها فقد كفر، لأن ذلك ثبت تواتراً عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وكذلك من رمي السيدة عائشة ل بالفاحشة وقد نزل القرآن ببراءتها فهو كافر ، وهذا ما قال به الزنديق الكافر سلمان رشدي، أما من أنكر ما ثبت بأخبار الآحاد فلا يلزمه به الكفر، هذا حكم الفروع، أما الأصول الثلاثة، وكل ما لم يحتمل التأويل في نفسه وتواتر نقله، ولم يتصور أن يقوم برهان على خلافه فمخالفته تكذيب محض، و التكذيب زندقة و كفر، أما ما يتطرق إليه احتمال التأويل و لو بالمجاز البعيد فننظر إلى البرهان، فإن كان قاطعاً وجب القول به، ولكن إن كان في إظهاره مع العوام ضرر، لقصور فهمهم، فإظهاره بدعة، وإذا لم يكن البرهان قطعياً، لكن يفيد ظناً غالباً، وكان مع ذلك لا يعلم ضرره في الدين، كنفي المعتزلة الرؤية علي الله تعالى، فيكون ذلك بدعة وليس بكفر، و أما ما يظهر له ضرر فإنه يقع في محل الاجتهاد والنظر فيتحمل أن يكفر ويتحمل أن لا يكفر مثل قول بعض أدعياء الصوفية أنه بلغ حالة أسقطت عنه الصلاة وأحلت له المحرمات فهذا ممن لا شك في زندقته ووجوب قتله وإن كان في الحكم بخلوده في النار نظر، و لا ينبغي أن يظن أن التكفير ونفيه ينبغي أن يدرك قطعاً في كل مقام، لأن التكفير حكم شرعي ينتج عنه إباحة المال وسفك الدم والحكم بالخلود في النار، ومأخذه كمأخذ سائر الأحكام الشرعية، تارة يدرك بيقين وتارة بظن غالب وتارة يتردد فيه، ومهما حصل تردد فالوقف فيه عن التكفير أولى، والمبادرة إلى التكفير إنما تغلب على طباع من يغلب عليهم الجهل، لأن معرفة ما يقبل التأويل وما لا يقبله ليس بالهين بل لا يستقل به إلا الماهر الحاذق في علم العربية العارف بأصولها وعادة العرب في استعمال استعاراتها وتجاوزاتها ومناهجها في ضرب الأمثال، ومن أشد الناس غلواً وإسرافاً في التكفير الطائفة الوهابية التي تدعي السلفية الذين كفروا عوام المسلمين وزعموا أنه من لا يقول بقولهم ومن لا يعرف الأدلة الشرعية بأدلتهم التي حررها شيخهم محمد عبدالوهاب التميمي النجدي فهو كافر، فهؤلاء ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده وجعلوا الجنّة وقفاً على شرذمة يسيرة من القائلين بقولهم ممن جهلوا ما تواتر من السنّة

وقد كفروا الأشاعرة والماتريدية وأهل التصوف واعتبروا أن حجتهم أكثر علمية من فقهاء الحنفية والمالكية والشافعية بل ومن خالفهم من الحنابلة الذين يدعون الانتماء لمنهجهم في الاستنباط والتحقيق، ووصل الأمر إلى تكفير المذاهب الشيعية خاصة الإسماعيلية والإمامية وحتى الزيدية وتقولهم على الاباظية ومن ذلك نعلم أنهم كفروا وبدعوا وفسقوا أكثر من ٩٥% من أهل القبلة الذين قال فيهم سيد الخلق (لا تجتمع أمتي على ضلالة) والطامة الأكبر أن أتباع هذا المذهب المنحرف المخالف للغالبية العظمى من أمة الإسلام تمكنوا من السيطرة على الحرمين الشريفين وفرضوا مذهبهم على الحجاج والمعتمرين ومنعوا العلماء من غيرهم من أن ينتفع الناس بعلومهم وفتاواهم وقد نتج عن ذلك انحراف خطير شوّه الصورة، وأعاق الدعوة، ومنع الإسلام من الانتشار، ناهيك عن أنهم استباحوا دماء المسلمين وأموالهم، هذا ما رأيناه في الجزائر ومصر واليمن والعراق وسورية وإندونيسيا وغيرها من ديار الإسلام، الأمر الذي بات معه مواجهة هذا التيار فاسد العقيدة والعبادات والمعاملات ضرورة واجبة لن يستقيم حال الأمة إلا بمواجهته وإظهار جهله واقتلاعه من جذوره وأهم خطوة واجبة الإتخاذ هي تطهير الحرمين الشريفين من رجس دعاة التكفير وإلى أن يكون ذلك لا مناص من تحصين شبابنا من إفكهم، وهذا لن يكون إلا بإعادة الاعتبار للمدارس الفقهية التي أجاز الفقهاء التعبد بها خاصة التي سادت في منطقتنا منذ مئات السنين وذلك بالتوسع في تعليم أصول الدين وفقاً لمناهجها والتبحر في علومها وتحقيق مخطوطاتها وتكريم من لازال على قيد الحياة من كبار مشايخها، ثم التأكيد على الشورى باعتبارها أصل من أصول الدين تحقق منعة المجتمع الإسلامي من كل الضلالات المادية والمعنوية.

الفصل الثالث : الشورى وبناء الدولة المدنية

أولاً: مفهوم الشورى:

الشورى في اللغة: المشورة، والمشاورة: استخراج الرأي، يقال: شَاوَرْتُهُ في الأمر، استشرته، وطلبت منه المشورة.

والشُّورَة، والشَّارة: الحُسن والهيئة، يقال: شَارَ الرجل، إذا حسن وجهه،، وشَارَ العسلَ: استخرجه واجتناه من مواضعه، وشَارَ الدابة: عرضها للبيع، كأنه من الشّور، وهو عرض الشيء وإظهاره.

والخلاصة: فالشورى الإظهار، والاستخراج.

الشورى في الاصطلاح: قال الأصفهاني رحمه الله: «هي استخراج الرأي، بمراجعة البعض إلى البعض» ويقول ابن العربي رحمه الله : «هي الاجتماع على الأمر، ليستشير كل واحد منهم صاحبه، ويستخرج ما عنده» وقال الطاهر بن عاشور رحمه الله : «هي أن قاصد عمل يطلب ممن يظن فيه صواب الرأي والتدبير، أن يشير عليه بما يراه في حصول الفائدة المرجوة من عمله، وعرفها الدكتور جابر الأنصاري بقوله: «هي استطلاع رأي الأمة، أو من تندبه عنها في الأمور العامة المتعلقة بها » فالتعاريف تتفق على معنى واحد للشورى، فتفيد أنها قائمة على تبادل الآراء للتوصل إلى الرأي الأصوب.

الشورى في القرآن الكريم: وردت كلمة الشورى في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع: أولها: في خطاب موجه لولي الأمر. وثانيها: في خطاب موجه للأمة الإسلامية وثالثها: في أمر اجتماعي.

١. قال الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. ووجه الدلالة: أمر الله نبيه أن يشاور المسلمين؛ تطييباً لنفوسهم، ورفعاً من أقدارهم، ولتصير سُنة، فإذا عزمت على ما تريد إمضاءه من الشورى، فتوكل على الله .

٢. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨]. ووجه الدلالة: إن طابع الشورى في الجماعة كان مبكراً، وكان مدلوله أوسع وأعمق من محيط الدولة، وشئون الحكم فيها، إنه طابع ذاتي للحياة الإسلامية، وسمة مميزة للجماعة المختارة لقيادة البشرية.

٣. قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة:٢٣٣]. ووجه الدلالة: في الآية دليل على إباحة الله تعالى للوالدين التشاور في الرضاعة، فيما يؤدي إلى إصلاح الصغير، وذلك موقوف على غالب ظنونهما لا على الحقيقة واليقين.

السنة المطهرة: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«المُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ»** (أخرجه الترمذي). ووجه الدلالة: أفاد الحديث أن من أفضى إلى أخيه بسره، وأمنه على نفسه، فقد جعله بمحلها، فيجب عليه ألا يخون المستشير بكتمان مصلحته، وألا يشير عليه إلا بما يراه صواباً، فهو أمين على ما استشير فيه .

ثانياً: أهمية الشورى في حياة الأمة:

تعد الشورى ركيزة أساسية في بناء الدولة الإسلامية، بل هي من أُسس الحكم في الإسلام، ومن أبرز خصائصه؛ فالشورى تحتل مكان الصدارة في عداد المبادئ التي جاء بها الإسلام، وأرسى دعائم دولته عليها ولأهميتها سمى الله تعالى سورة في القرآن الكريم باسم الشورى، ومدح أهل الشورى في معرض حديثه عن فرائض كلية في الإسلام؛ ليدلل على عظيم شأنها ومكانتها، فالأمة تعيش على وجه الأرض بالخيرية من السعادة في تطبيقها؛ لهذا المبدأ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ خِيَارُكُمْ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ سُمَحَاؤُكُمْ، وَأُمُورُكُم شُورَى بَيْنَكُمْ، فَظَهْرُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا». رواه الطبري في مسند عمر عن الصحابي أبي هريرة ط.

والشورى في الأمة مبدأ أصيل، وصفة لازمة، بدونها تفقد الأمة صلاحها كما لو تركت الصلاة أو الصيام، حيث ترتكز عليها كل دولة راقية تنشد لرعاياها الأمن والاستقرار، والفلاح والنجاح؛ ذلك لأنها الطريق السليم التي يتوصل بها إلى إجراء الآراء والحلول، لتحقيق مصالح الأفراد، والجماعات، والدول، وما تمسك المسلمون بالكتاب والسنة، فإنهم لن يضلوا بقرار يصدرونه بالشورى، ولا يجمعون على باطل، كما روي عن رسول الله ، وتلك العصمة النسبية من الباطل لنتيجة الشورى العامة، تؤكد جليل شأنها في الحياة الإسلامية، والسياسية.

والشورى في الإسلام أصل مشروعية الولاية العامة على الأمة، وهي الشورى السياسية، قال عمر: «فَمَنْ بَايَعَ امْرَأً مِنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ المُسْلِمِينَ، فَإِنَّهُ لا بَيْعَةَ لَهُ وَلا للذِي بَايَعَهُ»، وقد تفرد الإسلام بهذا المبدأ الأصيل، وأقره سلوكاً عاماً في المجتمع، وأسلوباً في إدارة الشئون العامة، حتى ربط به العالم ابن عطية رحمه الله شرعية الحكم فقال: «إن من لا يستشير أهل العلم والدين، فعزله واجب لا خلاف فيه» والشورى تحتاج إليها كل جماعة ترغب في إصلاح شأنها وتقدم بلادها؛ لأنها من أهم أسباب صلاح المجتمع، ومن أهم أسس الحضارة الإسلامية الإنسانية، وتشتد حاجة الأمة إلى الشورى حرصاً على استمرار حضارتها واضطراد تقدمها، إن الشورى مطلب الأمم الواعية المتنورة ويكفي هذا دليلاً على عظمة نظام الشورى أساساً من أسس الشريعة الإسلامية الخالدة.

ثالثا حكم الشورى وفوائدها:

لمكانة الشورى في الإسلام، باعتبارها دعامة وركيزة أساسية في بناء الدولة الإسلامية، ولعظيم شأنها في وحدة الأمة، وإعداد قيادتها، ولتعلقها بالمصالح المرسلة، والمصيرية من السلم والحرب، والمعاهدات وغيرها، اعتنى علماؤنا في إظهار حكمها.وقد اختلف الفقهاء في حكم الشورى على قولين:القول الأول: الشورى واجبة وملزمة، وإلى هذا ذهب كثير من السلف، وعامة المعاصرين والقول الثاني: الشورى مندوبة، وإلى هذا ذهب الشافعي، وقتادة، والربيع، وابن إسحاق.فإذا كانت الشورى واجبة كان المجتمع ملزماً بالأخذ بها، وإلا ترتب على عدم الأخذ بها إثم وعقاب، وإذا كانت مندوبة، فلا ضير بتركها.

أدلة القول الأول:استدل القائلون بأن الشورى واجبة بالقرآن الكريم والسنة :

أولاً: القرآن الكريم:

١. قال الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. ووجه الدلالة: هذا النص صريح في وجوب المشاورة؛ لأن ظاهر الأمر للوجوب، إلا إذا صرفته قرينة عن ذلك، ولا قرينة صارفة عن الوجوب هنا، قال الفخر الرازي: « ظاهر الأمر للوجوب فقوله: (وَشَاوِرْهُمْ) يقتضي الوجوب.

٢. قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى: ٣٨]. ووجه الدلالة: قرنت الآية الكريمة الشورى بين المسلمين بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة المعبر عنها بالإنفاق، فدل ذلك على أن حكم الشورى كحكم الصلاة والزكاة، وهما واجبتان شرعاً، فكذلك الشورى واجبة شرعاً، ودل هذا على أنه إذا كانت الصلاة فريضة عبادية، والزكاة فريضة اجتماعية، فإن الشورى فريضة سياسية، قال الجصاص بعد شرحه لهذه الآية: «يدل على جلالة موقع الشورى ذكره لها مع الإيمان، وإقامة الصلاة، ويدل على أننا مأمورون بها».

ثانياً: السنة:استدل الفقهاء رحمهم الله، على وجوب الشورى بمواظبته عليها، وكتب التاريخ، والحديث، والتفسير مليئة بالنماذج، والتي منها:

١. مشاورة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه في غزوة بدر لخوض المعركة، وفي قبوله مشورة الحباب ط في النزول عند ماء بدر، واستشارته في شأن الأسرى.

٢. استشارة النبي لأصحابه في غزوة أحد في مكان ملاقاة العدو، أفي المدينة أم يخرجون خارجها لقتاله؟ وقد رأت الأغلبية الخروج؛ حتى لا يقال عنهم إنهم جبنوا عن لقاء العدو.

أدلة القول الثاني: استدل القائلون بأن الشورى مندوبة للحاكم بالقرآن الكريم والسنة، كما يلي:

أولاً: القرآن الكريم:

إن الأمر في قول الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ للندب وليس للوجوب؛ فقد نُقل عن الإمام الشافعي قوله: «نظير هذا قوله: «البِكْرُ تُسْتَأْمَرُ فِي نَفْسِهَا»، إنما أراد استطابة نفسها، فإنها لو كرهت، كان للأب أن يزوجها؛ وكذلك مشاورة إبراهيم عليه السلام لابنه حين أمر بذبحه .

ثانياً: السنة: إن الشورى لو كانت واجبة لفعلها النبي في كل الأمور، وواظب عليها، ولكن ثبت أنه ترك المشاورة في المسائل الكبيرة؛ مثل صلح الحديبية، وقتال بني قريظة .

وقد نوقشت أدلة القائلين بأن الشورى مندوبة بما يلي:

١. إن الاستدلال بآية سورة آل عمران باعتبار الأمر للندب: لا يسلم به إذ إن القول المنسوب إلى الشافعي أن الأمر في (وَشَاوِرْهُمْ) صرف عن الوجوب إلى الندب قياساً على قوله: «البِكْرُ تُسْتَأْمَرُ فِي نَفْسِهَا» يعتبر قياساً مع الفارق؛ لأن الشورى أمر عام، والمَقيس عليه أمر خاص، ثم إن حكم المقيس عليه ليس محل اتفاق، ويرد كذلك القياس بالندب على استشارة سيدنا إبراهيم عليه السلام لابنه، أنه قياس غير سليم، فرؤيا سيدنا إبراهيم عليه السلام وهو يذبح ولده بكره إسماعيل عليه السلام، تكليف لإبراهيم عليه السلام، وابتلاء له، وهو كذلك وحي إلهي، والأمر الإلهي الموحى به لا يشاور فيه أصلاً، فقول إبراهيم عليه السلام لابنه من قبيل الإخبار بالأمر، والتكليف بالذبح، فهو على سبيل الإعلام ليس إلاّ.

٢. بالنسبة للاستدلال بالسنة على أن الشورى لو كانت واجبة لفعلها النبي في كل الأمور، حيث ثبت تركه لها في صلح الحديبية وبني قريظة: فيرد عليه أن النبي لم يشاور أحداً من المسلمين في صلح الحديبية حين أبرمه؛ لأن الصلح أمر رباني، والأمر أصبح فيه وحياً؛ يدل على ذلك قوله حين اعترض عمر بن الخطاب على الصلح: «**إِنِّي رَسُولُ ِ وَلَسْتُ أَعْصِيهُ، وَهُوَ نَاصِرِي**» كما روى البخاري في صحيحه عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم في حديث طويل، أما في قتال بني قريظة، فأمر النبي بالمسير إلى بني قريظة دون أن يستشير أحداً؛ لأنه كذلك أمر رباني؛ إذ إن جبريل عليه السلام جاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم قائلاً له: «وَضَعْتَ السِّلاحَ؟! وَاللهِ مَا وَضَعْتُهُ، اخْرُجْ إِلَيْهِمْ، قَالَ النَّبِيُّ «فَأَيْنَ؟»فأشار إلى بني قريظة، فأتاهم رسول الله فنزلوا على حكمه) رواه البخاري في صحيحه عن عائشة أم المؤمنين ل، والناظر المتأمل في أقوال الفريقين، وأدلتهم يتيقن جازماً رجحان الرأي القائل: إن الشورى واجبة، وذلك لقوة أدلتهم الثابتة من القرآن والسنة، وسلامتها من أي اعتراضات حقيقية أما القول بأن الشورى مندوبة، فيؤدي إلى استبداد الحاكم، وانفراده في تقرير مصير الأمة

فتصبح الشورى خاضعة لمزاجه، مما يفقد الثقة بين الحاكم والمحكوم، ويبعث العُجب والغرور في نفسه كما أن ترك الشورى يفقد الأمة كفاءاتٍ كان بإمكانها أن تستفيد منها وتسمح بالغلو والتطرف وبروز الزنادقة.

وبعد بيان أهمية الشورى واستجلاء حكمها، واعتبارها دعامة في حياة الأمة، يجدر بنا أن نتحدث عن فوائدها، ومن أهمها:

١. إن الشورى طريق إلى وحدة الأمة الإسلامية، ووحدة المشاعر الجماعية، من خلال عرض المشكلات العامة، وتبادل الرأي والحوار وبذلك تصحح الانحرافات وتقمع الفتن وتواجه الزندقة .

٢. الشورى خير وسيلة للكشف عن الكفاءات والقدرات، وتحقيق الأفراد لذاتياتهم، وما أوتوا من مواهب وملكات؛ كي تستفيد الدولة والأمة من كافة طاقات أبنائها، ولاسيما في شئون الحكم والسياسة.

٣. الشورى آلية للتوصل إلى توافق بخصوص اختيار البديل الأمثل من بين عدة خيارات مطروحة، فَلُبُّ الشورى هو المشاركة في القرار السياسي وغيره، وهي آلية المشاركة مع الإبقاء على التعددية والتمايز وبذلك ينتهي التطرف .

٤. إنها خير وسيلة لتربية الأمم وإعدادها للقيادة الرشيدة، وتدريبها على تحمل التبعات، كما أنها تُعَوِّد الأفراد على العطاء، وعلى الانتماء لجماعتهم ووطنهم، وتحمل مسؤولياتهم تجاه هذه الجماعة .

٥. تدرب الشورى المستشار (الأمة) على المساهمة في الحكم والإدارة، وتثريه بالتجربة وجودة الرأي والتفكير من خلال ممارسته للشورى.

٦. إن ممارسة الشورى في كل جوانب الحياة يمثل للأمة المسلمة مدرسة تستطيع من خلالها تحقيق آراء قوية وسديدة توصلها إلى طريق النصر والتمكين، كما نال بها المسلمون الأوائل، الظفر والأمن.

رابعا : الشورى والديمقراطية المعاصرة:

أولاً: تعريف الديمقراطية:

الديمقراطية (**Democracy**) كلمة مشتقة من لفظتين لاتينيتين (**Demos**) الشعب أو الدهماء، أو العامة، و (**Kratos**) سلطة، ومعناها: الحكم الذي تكون فيه السلطة للشعب، وهي كلمة إغريقية الأصل وقد اتسع مفهوم الديمقراطية في العصر الحديث، وتبنتها أنظمة حكم متباينة، ومن ثم صار لها تعاريف كثيرة بحسب الزاوية التي ينظر إليها، وفي الغرب لا يزال تعريف الرئيس الأمريكي (لنكولن) للديمقراطية بأنها: «حكم الشعب بالشعب وللشعب» هو الأكثر شيوعاً عندهم.

ثانياً: الديمقراطية بين التحفظ والرفض:

تعددت كتابات العلماء والمفكرين المسلمين في الموقف من الديمقراطية الغربية، والمتتبع لهذه الكتابات يرى ثمة ثلاثة اتجاهات متباينة، فمن الكتابات من حاولت إبراز مصطلح ديمقراطية الإسلام مقابل ديمقراطية الغرب المسيحي، متجاوزة ما إذا كان الإسلام يتعارض والديمقراطية، وبعضها حاولت أن تبرز نظرية الشورى في الإسلام (الديمقراطية المباشرة) وأنها أوسع وأشمل من الديمقراطية الغربية النيابية، وثالثتها هاجمت الديمقراطية، ورفضتها جملة، واعتبرت أن لا سبيل إلى مزج الإسلام بالديمقراطية، ولا سبيل إلى القول بأن الإسلام نظام ديمقراطي، وعلى ضوء ذلك يمكن القول على صعيد المصطلح أنه لا بأس من الاستعانة بكل كلمة رائجة تعبر عن معني، وإدراجها في سياق الدعوة للإسلام، ولفها بأطر التصورات الإسلامية، ويمكن القول: أنه من حقنا اقتباس ميزات الديمقراطية، فالإسلام قد سبقها بتقرير القواعد التي يقوم عليها جوهرها، ولكنه ترك التفصيلات لاجتهاد المسلمين وفق أصول دينهم، ومصالح دنياهم، وتطور حياتهم بحسب الزمان والمكان، وتجدد أحوالهم، حتى هذه الأمور الجزئية إذا اقتبست من غير المسلمين، تعد في هذا الوقت جزءاً من الحل الإسلامي؛ لأنها إنما اقتبست باسم الإسلام، وعن طريقه، وبعد إذنه، ووفقاً لقواعده في استنباط الأحكام الشرعية لما لا نص فيه من الوقائع والتصرفات، فلا يضيرنا أن هذه الجزئية بالذات قد أخذت من نظام غير إسلامي، فإنها باندماجها في النظام الإسلامي تفقد جنسيتها الأولى، وتأخذ طابع الإسلام وصبغته. ولا يوجد شرعاً ما يمنع اقتباس فكرة نظرية أو حل عملي من غير المسلمين، فقد أخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة الأحزاب بفكرة حفر الخندق، وهو من أساليب الفرس. ولكن لا يعني ذلك أن نحتكم إلى الديمقراطية في حياتنا على إطلاقها، وندع إسلامنا، أو نترك الشورى التي تمثل قيمة إسلامية عليا في حياة الأمة: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

ثالثاً: أوجه الاختلاف بين الشورى والديمقراطية الغربية:

يمكن تلخيص الفروق ووجوه الاختلاف بين الشورى والديمقراطية في النقاط التالية:

١. إن الديمقراطية الغربية تمثل نظاماً للحكم فقط، يهدف إلى إقامة سلطة يكون الشعب هو الممارس لها من خلال نواب عنه حتى وإن كان هذا التمثيل غير حقيقي، ودون أن يأخذ بالاعتبار أي أسس دينية، ولا مجال بالطبع في الإسلام لحكم شعبي منقطع عن معاني الإيمان؛ لأن الدين الإسلامي دين توحيدي يحيط بالحياة، ويضفي عليها جميعاً معنى العبادة، وينظمها بشريعة شاملة .

٢. إن الشورى نظام إيماني قائم على قواعد المنهاج الرباني، وهي رسالة إلى الناس جميعاً تحمل صفة الشمول، وتعد منهجاً صالحاً للتطبيق في كل عصر وزمان، أما الديمقراطية فهي تجربة بشرية محصورة بمدى استيعابها، ومحدودة بمدى إيفائها لمتطلبات الحياة، ومواءمتها لمتغيرات العصر.

٣. إن سلطة ممثلي الشعب في الديمقراطية الغربية مطلقة في شكلها الافتراضي، فالأمة (نظريا) هي صاحبة السيادة المطلقة، وهي تخول المجلس الذي تنتخبه وضع القانون، أو لغيه، ولكن في الشورى ليست سلطة الأمة مطلقة هكذا، وإنما هي مقيدة بالشريعة، ولا تستطيع أن تتصرف إلا في حدود هذا الدستور الملزم والغير قابل للنقض.

٤.إن الشورى الإسلامية مرتبطة بقيم أخلاقية نابعة من الدين نفسه، ولذلك فهي ثابتة غير خاضعة لتقلبات الميول والرغبات، ومن ثم فهي تضبط تصرفات الأمة ورغباتها، بينما لا تستند الديمقراطية الغربية إلى مثل هذه القيم الثابتة، بل هي قيم نسبية تتحكم فيها رغبات وميول نواب الأكثرية التي غالبا ما تكون غير حقيقية وأنانية وآنية.

الخاتمة

هذا الكتاب محاولة محدودة قاصرة، من طالب معرفة، يعمل على وضع منهج تفكير جماعي يقاوم التخلف، ويدفع الأمة الإسلامية نحو التمكن من أدوات التقدم المشروعة، مؤسسة على العقل والنقل، فلا قيمة لمنقول غير معقول، ولا فائدة من معقول يناقض صحيح المنقول.

فهرس الكتاب